اقرأ

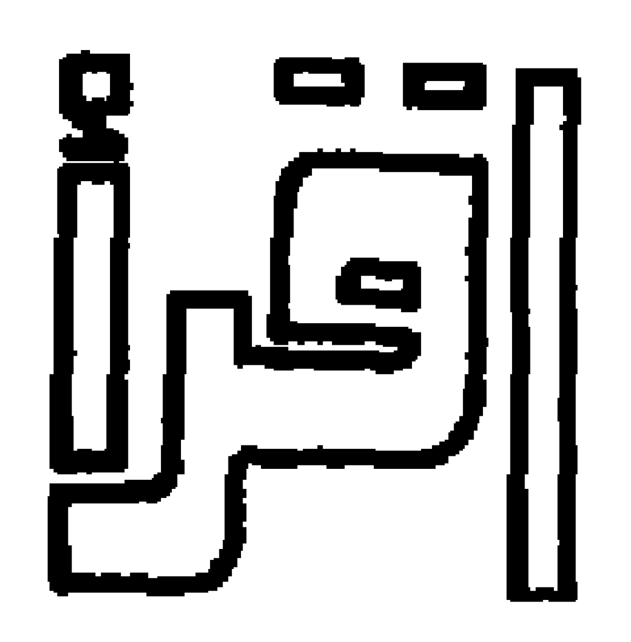
عبد الفتاح رزق

مسافر على الموج

ذكريات

.. ورحلات أخرى

دار المعارف



[٥٣٤]

مسافر على الموج

.. ورحلات أخرى

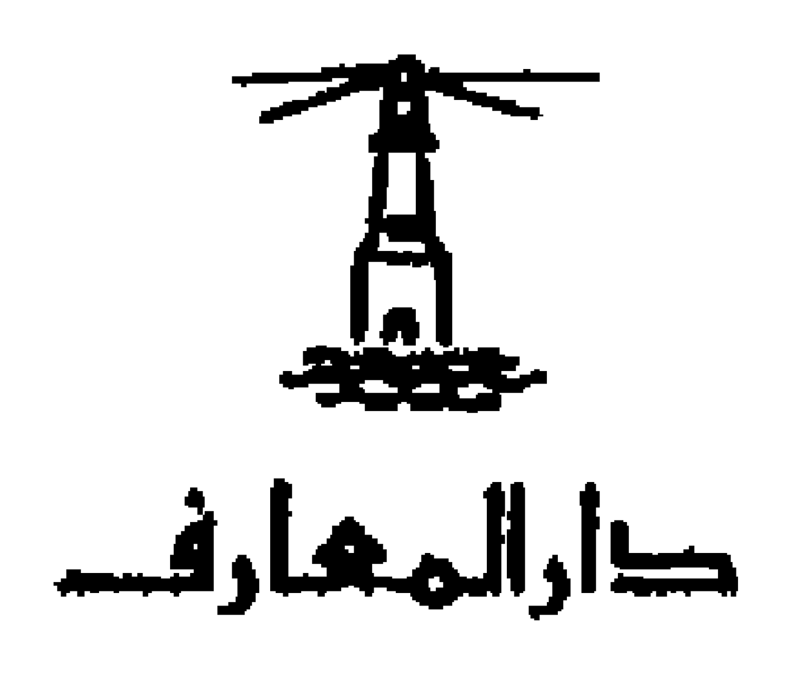
عبد الفتاح رزق

مسافر على الموج

ذكريات

.. ورحلات أخرى

(الكتاب الحائز على جائزة الدولة)



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

فى البداية عبرت الأفق!

منذ زمن بعيد وأنا أصادق ذلك الأفق، ذلك البحر، أنظر إليه دون ملل، لا أتخيل وراءه أرضًا، أعتبره الخيال نفسه، الرحابة، الامتداد اللانهائى، العناق مع السماء، مهبط الشمس عند الغروب.

ومنذ ذلك الزمن البعيد وعلاقتى معه تقف عند حدود التأمل، يغضب ويهدأ، يعطى ويأخذ. لا يهم ان يداعب موجه قاربًا أو سفينة. لا يهم ان يحاوره طائر النورس، عندما أغيب عنه وأعود يستقبلنى بهدير عتاب، وبنسمة شوق!

وفى ذلك الصباح كنت على موعد معه... ولكن دون تأمل.

وقفت أحادثه، وأستأذنه فى أنى آخر النهار نفسه سأكون ضمن ركاب سفينة تقول على الأوراق إنها ذاهبة إلى جانبه الآخر، إلى أكثر

من شاطئ.. هناك.. حيث يوجد وراء الأفق عالم آخر، ناس، وجبال. وكل مفردات علم الجغرافيا.

وحتى بعد أن صعدت درجات السفينة كنت مازال لا أصدق، صديق البحر نهايته الأفق، ومهما أبحرت السفينة فلن تدرك الأفق!

وهم ما تقوله الأوراق، وهم ما تريده السفينة.

ونزلت إلى بطن السفينة وكأنى ألق بنفسى إلى أعماق الوهم!

بطن السفينة «سينتيا» كأنه بيت جحا، سراديب ودهاليز. قرات صغيرة ودرجات كثيرة، وفات وقت طويل قبل ان أعرف أسرارها، وأنها فى النهاية مسالك مثل تلك التى كنا نعرفها عندما كنا نطوى ورقة ونحن صغار لتأخذ شكل قارب ثم نلقى بها إلى الماء لتطفو فوقه، وحين عرفت المكان الذى سأركن إليه عندما أرغب فى النوم، وحين تأكدت أن به طاقة تطل على الخارج - لم تكن تطل على صديق البحر بعد - قررت الصعود إلى ظهر السفينة.. ووقفت مشدوهاً..

الوهم يتحرك بى وبالآخرين وكأنه الحقيقة، رصيف ميناء الإسكندرية يبتعد ويبتعد، مقدم السفينة يداعب صدر صديق البحر ويجوس فوقه. كل سنوات التأمل تدخل الآن الامتحان، ليست هناك الصرخات التقليدية لقائد السفينة، وليست هناك الخطوات العجلى لمن ينفذون الأوامر، السفينة «ماشية» دون صخب وضجيج، تبحر فى عناد - ربما تخصنى أنا به - صوب الأفق، اجتازت البوغاز

وأصبحت مركزًا لحركة دائبة لا يعنيها أن الماء يحيط بها من كل جانب، أنا الآن فى قلب التجربة لأول مرة، سافرت كثيرًا ولكنى لم أركب البحر، فهل أنا قادر الآن على التأمل وأنا بعيد عن شاطئه؟ لماذا يقول صديق البحر لو حادثته الآن؟ ماذا ترد به على أمواجه وأنفاسه ورحابة أفقه؟، فى الصباح استأذنته فى أن أذهب إلى جانبه الآخر، فهل أصبح علىّ فى المساء أن أعتذر؟!

الشمس غابت دون أن أشهد لحظة اختفائها هناك حيث تذهب بى السفينة، زرقة الماء تخالطها العتمة، ولكنها تظل تتحرك وتتحرك، فرق كبير بين أن تسير عربة فوق أرض ثابتة، وأن تتحرك سفينة فوق سطح الماء، حركة فوق حركة. صديق البحر لم يستسلم بعد، لو تطلعت بنظراتى بعيدا فسأرى ما كنت أراه نفسه طوال عمرى، الأفق هناك.. مازال هناك. لن تضيع فى افواء خطات التأمل، وفيها موجة عالية مع زميلة لها أعلى منها، ابتسمت وأنا أتخيل أن صديق البحر يبتسم معى، سمعته يقول فى ثقة تطاول أقصى قوة: «أنت الآن فى ورقة مطوية»!

«أنت الآن - والآخرون معك - ضيوف عندى وربما لا تكونون من الضيوف»!

«عمومًا.. مرحبا بك فى بيتى.. فى عرض البحر»!

* * *

نداءات الميكروفون كثيرة، وركاب السفينة الواحدة مازالوا بالنسبة لبعضهم البعض أغرابًا، ألتقط من « الميكروفون » الكلمة التى تقول إننا سنمر فى الصباح على جزيرة «كريت»... كل ما أعرفه عن كريت هو موقعها وسط البحر وراء الأفق، وتلك اللعبة المشهورة من ألعاب المنطق، واللعبة من اختراع أهل كريت أنفسهم وكلهم من الإغريق، إذا كان معروفًا أن أهل كريت كذابون، فماذا تكون النتيجة إذا قال واحد كريتى إنه «كذاب» أهو كذلك فعلا، أم أنه بأساس كونه كريتيًا ليس صادقًا، وبالتالى فهو ليس كاذبا؟!.. لعبة.. والسفينة مثلها الآن وقد لفها من الخارج ظلام الليل ووشوشة الموج، لا أريد أن أبرح مكانى عند ذلك السور والصورة حولى تكتمل فيها الرومانسية إلى أبعد الحدود.. القمر.. وشعاعاته.. والموج.. الموج الكثير.. والحركة فوق الحركة.. وتلك الأنغام الموسيقية الناعمة، الخافتة، التى تنبعث من «صالون» السفينة.. لا مفر.. أنت مسافر الآن على الموج، لا مفر.. العناد يدخل فى سباق للوصول إلى الأفق، ولعبوره.. لا مفر!..

يحدثنى الواقف إلى جوارى عند السور دون سابق معرفة، يقول دون أن أتبين ملامحه: «انتم محظوظون. البحر يستقبلكم فى وداعة.. وهذه ليست عادته».

والتفت إلى الرجل فى اهتمام بالغ، صديق آخر للبحر مثلى، لابد أن يكون كذلك، وإلا فلماذا اختار هذه الكلمات بالذات،

ملامحه تقول إنه ليس مصريًا والأخاديد فى وجهه تقول إنه فوق الستين، وأقول له : «وهل يثور البحر فى مثل هذا الوقت من السنة ؟ ».

ويقول الرجل فى بساطة : «البحر لا يعرف الصيف والشتاء. إنه غامض ومغرم بالمفاجآت.. وفى رُحلة سابقة لى... ».

لم أكن منتبهًا لبقية كلماته، سيغرقنى فى الحكاية المحفوظة عن الموج الذى يطاول السحاب، وعن السفينة التى تتأرجح كلعبة فى مهب الريح. كنت متجهًا بكل اهتمامى إلى أبعاد الصورة الرومانسية، وعندما عدت إليه بنظراتى لم أجده إلى جوارى!

أبتسم للخاطر، وأنا أنسحب من الشرفة، إننى سأترك صديق البحر للحظات، كيف أتركه، ومهما صعدت أو نزلت فأنا داخل الورقة المطوية الطافية الآن فوق صدره؟!

أنزل إلى القمرة التى سأنام فيها حتى يأتى الصباح، القمرة بها سريران، أحدهما يعلو الآخر. وأجد من يقدم نفسه لى على أنه زميلى فى الحجرة، يقول فى كلمات مرحبة :

«معذرة فقد اخترت السرير الأرضي.. استعدادًا للطوارئ».

وأتساءل فى دهشة كبيرة : أى طوارئ؟

ويرد ببساطة :

«لم أقدم لك نفسى.. أنا الدكتور عادل.. طبيب الباخرة»!

طبيب الباخرة معى فى حجرة واحدة!!

وأسرعت أصعد السلم الخشبي الصغير إلى سريرى العلوى وأنا أحييه تحية المساء، ولم تمر لحظات حتى قلت دون تردد: «هل تمانع فى أن تظل الطاقة مفتوحة طول الليل؟».

ورد فى ترحاب:

«أبدًا. ومن يكره هواء البحر»!

ولفتنى سعادة كبيرة وقد أصبح فى مقدورى أن أرى صديق البحر حتى وأنا مستلق فى انتظار النوم.

وهمست لصديق البحر: إلى اللقاء فجرًا.

وردت أمواجه: إلى اللقاء.. وإن كنت سأظل ساهرة!

* * *

نور الفجر يوقظنى من الطاقة.

خط وهمى يقسم الطاقة نصفين، دائرة نصفها العلوى زرقة السماء. ونصفها الآخر زرقة البحر، وأسرع بارتداء ملابسى وأصعد إلى ظهر السفينة، الصورة الآن تختلف عن الصورة فى الليل، كل شيء يلفه الضوء الباهر الذى لا تكسره أية ظلال. سماء وبحر. وبحر وسماء. وقبل أن تطول وقفتى أسمع الصوت نفسه الذى سمعته عند السور فى الليل، والرجل الذى تخطى الستين. وفى هذه المرة كان يقول فى وداعة وكأنه يقرأ أفكارى: «فرق كبير بين زرقة الماء وزرقة السماء.. زرقة الماء هى الزرقة التواقة للعناق مع الأصفر ليتوالد

اللون الأخضر.. أما زرقة السماء فهى الطليقة الرافضة لأى قيد»!

وأستقبل كلماته فى ترحاب، أدعه يقدم نفسه، المهندس جويجوار.. يوناف يقيم فى الإسكندرية وعائد بزوجته المريضة لزيارة أهلها فى أثينا.. ثم يقول: «ولذلك فسأترككم فى «بيريه» لأن بيريه إن كنت لا تعرف بينها وبين أثينا نصف ساعة بالسيارة»!

وسألته: ومتى سنمر على جزيرة كريت؟

وقال: قبل أن نمر على كريت، سنمر على جزيرة أخرى صغيرة اسمها «كانديا».. ولابد ألا تفوتك مشاهدتها..

بعد لحظات استأذن ليطمئن على زوجته المريضة، وأحسست أن وقفتى هنا قد لا تتيح لى فرصة مشاهدة الجزيرة الصغيرة. أو حتى الأخرى الكبيرة، والتفت ورائى، فرأيت سلمًا آخر يقود إلى قمة السفينة. وصعدت ودون تردد وجدت مكانًا صغيرًا لا يتسع إلا لكرسى واحد يمكن أن أضعه بين قاربى إنقاذ وجلست أتطلع من جديد إلى صديق البحر وأنتظر جزيرته الصغيرة التى ستبزغ حالا وسط الموج.

طال انتظارى وأنا أتحمل شعاعات الشمس اللافحة فى عناد، وعندما حاولت الوقوف لم أستطع، أحسست بثقل شديد يشدنى من رأسى، وأن قدمىَّ لا تقدران على حملى، وهززت رأسى فى أمل ان أفيق من وهم أننى أخيرًا أصبت بما كنت أخاف منه.. دوار البحر. المشكلة الآن هى أن أصل إلى حجرتى، فهناك سأجد طبيب

الباخرة.. وزميلي في الحجرة. وتحاملت لأسير خطوات، ولأنزل سلمًا وراء الآخر، وقبل أن أدرك الردهة التي تقود إلى حجرتي، رأيته واقفًا يعترض طريقي.. المهندس جريجوار.. وقال لي على الفور:

«ماذا بك؟. خطواتك تبدو مترنحة».

وقلت على الفور: «لا شيء.. كنت أنتظر رؤية جزيرة كانديا.. أو كريت.. لا أعرف.. هناك أعلى السفينة..».

وعاد يقول: «وهل كنت طوال ذلك الوقت معرضًا نفسك للشمس دون أي ظل»؟.

ورددت: «نعم.. وماذا في ذلك؟».

وقال: «أبدًا.. إنك بذلك قد تعرض نفسك لضربة شمس.. وخاصة أنك لا تضع شيئًا فوق رأسك»!

هززت رأسي مستنكرًا ما يقوله، وإن كنت قد أدركت فعلا أنني أصبت بضربة شمس.. والسبب.. جزيرة كريت.

وقبل أن أتركه لأذهب إلى حجرتي وأنشد العلاج عند زميلي في الحجرة الدكتور عادل سمعته يقول: «هل رأيت جزيرة كريت؟».

رددت على الفور: «أبدًا.. لم أر أي جزيرة».

قال في دهشة: «كيف ذلك وقد مررنا عليها فعلا»!

توقفت الكلمات على لساني، أبعد هذا كله وبعد ضربة الشمس نمر على الجزيرة دون أن أراها، وسمعت كلمات الرجل تقول في شيء من المواساة!

« يبدو أنك جلست على الجانب الذى لا تبدو منه الجزيرة ».

فقلت فى إعياء : « إنه الجانب نفسه الذى تحادثنا عند سوره فى المساء ».

ضحك وهو يقول : « خطأ بسيط. . فالجزيرة كانت على الجانب الآخر » !

* * *

قبل أن أنام، قال لى الدكتور عادل : « هناك حفل تعارف فى المساء سيحضره طاقم الباخرة وكل الركاب. . أنا ذاهب الآن إلى العيادة. وسألقاك فى الحفل ».

وغرقت فى النوم.

وعندما استيقظت أسرعت بارتداء ملابسى لحضور الحفل. . وقبل أن أغادر الحجرة. . جاء الدكتور عادل ليقول لى : « لماذا لم تحضر الحفل » ؟!

وتزاحمت الكلمات على لسانى. هل فاتتنى الحفلة هى الأخرى كما فاتتنى جزيرة كريت. . ماذا حدث ؟!

يا صديق البحر. . ماذا أعددت لى فى جعبتك من مفاجآت ؟!

كلهم زوربا !

أبطأت السفينة من سرعته، وكالعادة زادت سرعة البشر فوقها..

وساد الهرج، فها نحن نصل الى أول ميناء، إلى « بيريه » وبعدها بنصف ساعة بالسيارة إلى « أثينا ».. وكلمات كثيرة عن « أوربا » التي وصلنا إليها، وعن الأماكن الساحرة التي سنشاهدها... الأكروبول.. والبارثينون.. وبروبيليا والجبال التي عرفت الأساطير اليونانية القديمة، وعرفت أيضًا الفلاسفة.. وأنا واقف عند سور الشرفة أتطلع إلى صديق البحر!

الواقع يقول إننا اجتزناه إلى جانبه الآخر..

الحقيقة تقول إن الامتداد اللانهائى قد أصبحت له نهاية.

ولكن الخيال يمكن أن يشتعل من جديد.. إذا نظرت هذه المرة ناحية الجنوب!

لا يهم المكان الذى نقف فيه، بالشمال أم بالجنوب، أى تطلع إلى البحر وإلى مداه الواسع.. يحفظ له الأفق. ويحفظ له أيضًا كل الملامح التى أقدسها فيه.. الكبرياء.. والقوة.. وأنفاس الكائن الحى.

أفقت على كلمات «جريجوار» وهو يشد على يدى مودعًا فرحلته هو وزوجته تنتهى هنا. كان يقول: أخيرًا أعود للوطن».

.. وبعد رحيله أحسست أن قدمى تريدان أن تطأا الأرض، أن تسيرا فوقها. فكل خطواتنا ونحن بالسفينة كانت حركة فوق حركة. سباقًا فوق موج البحر، وأسرعت أنتظم فى الطابور المغادر للسفينة.

وكانت الأرض يونانية.

كأننى فى الإسكندرية، الكلمات اليونانية المتناثرة لا تنفى ذلك. فحتى تلك النبرات تعودنا أن نسمعها هناك أيام كانت بلادنا مزدحمة بالخواجات، شارع واحد يفصل بين الرصيف الذى رست عنده السفينة «سينتيا» و «بيريه» المدينة.. المقاهى الكثيرة، والمطاعم، والبنوك فى انتظار القادمين من البحر.

وقالوا إن سيارة فى انتظارنا لتأخذنا إلى «أثينا» فى زيارة للأكروبول وبعدها نحن أحرار نتجول كما نشاء، كنت أجلس بجوار النافذة أتطلع إلى الشاطئ الذى يقود إلى أثينا، ولكن الكلمات التى كنت أسمعها شدت انتباهى عن متابعة أى شىء. كانت كلماته

بالعربية ولا تمر دقيقة واحدة دون نكتة أو قفشة لا يقدر عليها الا ابن بلد أصيل..

يتطلع إلى الجبال ويقول هناك يحتفلون بعيد «مار الياس».. وفى المدينة كل من اسمه «الياس» يغلق محله اليوم أو لا يذهب إلى العمل.. كان بحارًا منذ مئات السنين ثم مل التجوال بين الموانى واختار أن يستقر بين المزارعين.. ثم.. انظروا إلى هذه المبانى الجديدة.. نصيحتى لكم ألا تفعلوا مثل الرجل اليونانى.. إنه يضيع شبابه ليجمع «الدرخمة» فوق «الدرخمة» حتى يستطيع بناء بيت.. ثم يموت.. ليستمتع به غيره!.. اليونان تغيرت. حركة التعمير سريعة وعصرية. والآن ستدور السيارة لتصعد إلى «الأكربول» طبعًا أنتم ليس بكم شوق كبير لرؤية الآثار القديمة.. عندكم منها بالآلاف .. معبد الكرنك مثلا.. لكن ماذا سأقول.. تعالوا معى والسلام لرؤية الأكروبول!!

كنت أتجول بين أعمدة الأكروبول وحولها وذهنى مشدود إلى كلمات ذلك المرشد، وعندما تجمعنا فى السيارة ثانية لنعود إلى «بيريه» رحت أسأل من حولى عنه، وقال لى زميلى فى القمرة «رقم ١٩٠» الدكتور عادل إن اسمه «جورج» وأجمع الصديقان «سيد» و «لطفى» اللذان كانت أول معرفتى بهما عند شرفة السفينة أن «جورج» شخصية فريدة يجب أن تصحبنا بقية النهار مهما كان من انتهاء مهمته عند العودة إلى السفينة، وفعلا أسرعنا إليه نحن الأربعة

لنتعرف به، ولندعوه إلى ما نوينا عليه. ووجدناه يقبل دعوتنا فى حماس كبير والكلمات المرحة لا تفارق لسانه: «ضرورى عايزين تشربوا شاى.. تعالوا نقعد فى القهوة.. ياترى حد فيكم عايز يلعب طاولة؟!.»

* * *

يقول الأديب اليونانى الكبير «نيقوس كازانتزاكس» عن «زوربا».

«فى خضم الحرب العالمية الثانية وأثناء الاحتلال النازى والمجاعات التى اجتاحت اليونان.. عادت إلى مخيلتى صورة صديق جورج زوربا، الذى كنت قد التقيت به عام ١٩١٧ وخضنا معًا تجربة باءت بالفشل الذريع لاستغلال منجم للفحم المعدنى بإحدى الجزر اليونانية .. ولقد بعثت ذكرى صديق هذا المراوغ، التلقائى، الساذج، الماكر، بعثت فى قلبى العزاء، وعاونتنى على التغلب على كثير من الصعاب»!

ويقول صديقنا الجديد جورج: «نحن هنا نتعلق بحكمتين.. الأولى «ديفر بيسى» يعنى «مشى حالك» والثانية «ديم برازى» يعنى «ولا يهمك»!.

اليونانى ابن حظ، ليس معنى ذلك أنه ينفق بلا حساب. إنه حريص، ولكنه يعرف كيف يستمتع بحياته. والمرأة اليونانية مثله إنها تقدس الحياة الزوجية والبيت، ولكنها حريصة أيضًا على أن تأخذ

حظها من الدنيا حتى ولو مع رجل آخر غير زوجها.

أعرف أن اليونان ظهرت لكم من أول نظرة كمكان مألوف، كأنكم لستم فى أوربا. والحقيقة أن اليونان غربية وشرقية فى الوقت نفسه، لن أقول لكم كما تقول الكتب إنها بلد الضوء الباهر الذى ليس فيه ضباب الشمال أو حرقة إفريقيا، وإنما الحقيقة أنها كانت بلدًا فقيرًا تعود أبناؤه الهجرة منه لكسب العيش فى كل أطراف الأرض، ولكنه الآن وجد نفسه فى الصناعة.. استقرت الأمور بعد سنوات من القلق، نحن نصدر الآن الكثير من الصناعات القطنية والجلدية. هذا بخلاف السجائر والمواد الغذائية وخاصة الفاكهة والزيتون.. أنا أعرف ماذا وراء ضحكتك هذه؟.. ضرورى قد شاهدت الطابور الطويل لقطع الأسطول السادس الأمريكى قبل أن تدخل السفينة إلى الميناء. ولكن الحقيقة أننا نستفيد منهم أكثر مما يستفيدون هم منا.. نحن اليونانيين معروف عنا أننا نكره الاستعمار.. حاربنا الأتراك وانتصرنا عليهم وطردناهم من بلادنا.. فى العام الماضى احتفلنا بمرور قرن ونصف على انتصارنا عليهم.. هذا الاحتفال مسجل فوق علب الكبريت.. انظر.. كل علبة عليها صورة من صور أبطال النضال ضد الاتراك.. وفى الحرب العالمية الثانية وقفنا شهورًا فى وجه جنود موسولينى، ووجد الألمان صعوبة كبيرة قبل أن يستطيعوا احتلال اليونان.. والآن «ديفر بيسى» - مثى حالك - فالجنود الأمريكيون يصرفون آلاف الدولارات فى

الإجازات التى يمضونها فى « بيريه » أو فى « أثينا ».. باستمرار نحن الذين نكسب.. تسألنى عن حكاية القديس « مار الياس ».. هل كنت نائمًا فى السيارة ولم تسمع كلماتى عنه.. الحكاية أن له الآن فوق كل جبل كنيسة.. وزمان منذ ألف وخمسمائة سنة كان رجلا عاديًا يعمل فى البحر.. وبعد تجوال طويل قرر أن يهجر البحر نهائيًا.. حمل مجدافه وسار بين الجبال والأودية.. كان الزراع الذين يقابلونه يسألونه ما هذا الذى معك. فيقول « مجداف ».. وتكرر السؤال وتكررت الإجابة .. وفى النهاية قال لهم « هذه عصا لأهش بها العصافير بعيدًا عن الزرع ». وعاش بعد ذلك بين الزراع يحرس لهم الزرع.. كان يتنقل بين الجبال والبركة تتنقل معه.. فتعلق به الناس.. وكانوا ينامون ويتركون له الجبال وما عليها من مزروعات ليحرسها.. وعندما مات اعتبروه مثل الأنبياء أو القديسين.. وأقاموا له كنيسة أعلى كل جبل.. وبالمناسبة.. الجبال، الحياة بها تفوق كل وصف. أنا أذهب كل شتاء إلى القرية التى ولدت بها.. وهناك بعيدًا عن دخان المصانع وسمومها.. وحيث الهواء النقى الذى يشفى - على رأى المصريين - كل مريض.. أعيش على الفطرة بالنقود التى أكون قد جمعتها من عملى كمرشد سياحى طوال شهور الصيف.. كل شيء موجود فى قرى الجبال.. القرية عبارة عن ٤٥٠ شخصًا وعدد بيوتها لا يتجاوز المائة، وبكل قرية مدرسة، عندما يكبر الدارسون بها يذهبون إلى قرية أكبر، فى كل بيت لابد أن توجد به

تكعيبة العنب. وكل بيت لابد أن توجد بـه أيضًـا شـجرة اللـوز وشجرة التفاح. هذا بخلاف بقرتين وعدد لا بأس بـه مـن الماعـز.. ووسائل الترفيه الوحيدة هى تجميـع أهـل كل قـرية فى الأعيـاد. وحفلاتهم جميعًا تكون فى الظهيرة - حتى حفـلات الـزواج - وبعـد الخروج من الكنيسة يرقص الجميع بما فيهـم القسـيس والعـروس.. وتتوالى الأنغام الموسيقية من الفرقة الخاصة بالقرية.. وكما هـو الحـال عندكم يتجمع فى أيدى أفـراد الفـرقة «النقـوط».. ويشرب الجميـع «النبيذ» فى انتظار شيّ الخرفان.. أشكرك.. منذ فترة كبيرة وأنـا لم أدخن سيجارة مصرية.. هاجرت أسرتى إلى مصر مع بـداية الحـرب العالمية الثانية.. واستقرت فى حـى «بـولاق».. وهنـاك تعلمـت فى الكلية الفرنسية.. ثم لم أواظب على الـدراسة.. تعلمـت ميـكانيكيًا بإحدى ورش بولاق. أحببت أولاد البلد هناك وكنت أعيش وسـطهم كواحد منهم.. تركت مصر لشهور لأنضم للجيش اليونانى، ثم عدت ثانية لأتزوج من واحدة يونانية وطلقتهـا قبـل أن أغـادر مصر نهـائيًا عائدًا إلى اليونان منذ حوالى عشرين سنة.. ومن يومها وأنا فى شوق كبير للعودة إلى مصر.. ضرورى، أن الشوارع مزدحمة الآن بـالعربات التى تبيع المانجو.. آه.. إننى أعتـبرها أعـظم فـاكهة على وجــه الأرض.. عندما آكل واحدة أحس - ولا مؤاخذه - كأننى أستمتع بحب أجمل نساء الأرض!!

* * *

نعم.. كأننى فى الإسكندرية.. والإحساس يتزايد بذلك وأنا أتجول فى شوارع «أثينا» ثم فى شوارع «بيريه».. والمقاهى على النواصى وفى كل مكان.. والعربات التى تبيع البطيخ المشقوق إلى أجزاء صغيرة هنا وهناك. ومحال البقالة تفرش بضاعتها حتى منتصف الرصيف.. ولابد من وجود براميل «الزيتون» بكل الأحجام المفاوته، ولأبد أيضًا من وجود السردين «والبلاميطه».. كما كانت تفعل محال البقالة التى كان يملكها اليونانيون عندنا فى مصر.. أنت هنا لست فى حاجة إلى الحديث بلغة أجنبية.. لابد أن يصادفك من يعرف العربية.. سواء كان يونانيًا.. أو مصريًا هاجر إلى اليونان ليعمل هناك.. والمصريون كثيرون فى شوارع بيريه.. وهناك المقاهى التى تحمل أسماءهم وتقدم للزبائن «الشيشة».. وأحيانًا «الجوزة بالمعسل».. الصديق الجديد «جورج» يضحك ويقول «حصل خير.. المصريون أصبحوا الآن من هواة الترحال كما كنا نحن زمان».

وكأبناء البلد.. يصر «جورج» على دعوتنا على الغداء فى بيته.. الدكتور عادل، وسيد - ولطفى - وأنا.. قال بحماس ينْهى أى اعتذار: «أنا عندى شوية سمك كويسين وواحدة كابسوريا وزبيب «أوزو» زى ما انتم عايزين.. أما إذا كنتم عايزين بيرة فاشتروها معاكم قبل ما تطلعوا معايا.. تحت البيت واحدة صاحبة بقالة لسه راجعه من مصر».

بيت «جورج» لا يفترق عن أى بيت مصرى، وكل شىء فيه

يلمع بالنظافة. ولم تمر لحظات حتى جاءت زوجة جورج تسبقها طفلتها الصغيرة لتقدم لنا طعام الغداء.. السمك والكابوريا وسلطة اللبن بالثوم والقواقع المطهية بالدمعة.. كأننا فى إحدى مدن مصر الساحلية.

بعد الغداء انسحبت زوجة جورج وانسحبت الطفلة.. وقال جورج على الفور فى مرح: «إنها آخر زوجاتى.. طيبة وبنت حلال وما بتسألنيش أنت رايح فين ولا جى منين».

سألت «جورج» فى مشاكسة: عملك كمرشد سياحى يجعلك تقابل نساء من كل الجنسيات.. أيهن تعجبك أكثر؟.

ضحك وهو يقول: «سأتكلم على راحتى. فزوجتى لا تعرف العربية.. أولا.. هناك مجموعة يجب أن أحذفها من قائمة الإعجاب، وهذه المجموعة تضم نساء اليابان والهند.. وبقية كل دول وسط وشرق آسيا.. وعلى رأس قائمة الإعجاب تأتى المرأة الهولندية.. إنها أجمل نساء الأرض وأكثرهن استمتاعًا بالحب.. وبعدها الإيطالية.. ثم الإنجليزية»!

ونترك بيت «جورج» وننزل إلى الشارع..

وكما أن بصمات الأصابع لا يمكن أن تتكرر بين شخص وآخر.. كذلك المدن.. بصماتها الشوارع والبيوت..

والنشرات الدعائية تقول الأكروبول وتقول البارثينون ولكن عندما نلتق بالشارع. وعندما نلتق بالإنسان الذى يسكن هذا الشارع..

نعرف ما يفوق كل ما تقوله النشرات الدعائية.

« ديفريبسى ».. مشى حالك.

« ديم برازى ».. ولا يهمك.

المثلان الشعبيان اللذان يعتز بهما اليونانيون.

تمامًا كما كان يقول « زوربا » وكما كان يسخر من الفشل.
ويضحك من المصائب.

فكلهم هنا.. فى اليونان.. زوربا!

حوار من طرف واحد !

١

أنت تقول إنك عاشق للبحر، ولكن معذرة دعنى أسألك.. ماذا تعرف عنه؟ البحر ليس مجموعة أوصاف وكلمات تقولها ثم ينتهى كل شىء، لا يكفى الفتاة التى تعشقها أن تظل تردد فى أذنها أنك تحبها.. كذلك البحر.. ومرة ثانية معذرة فأنا لا أريد أن أفسد علاقتك معه، قد تكون عشت على شاطئه سنوات طويلة. قد تمتلك له من الأحاسيس ما يسعده لو أنه كائن حى مثلك، ولكن كل هذا لا يكفى.. لكى تكون عاشقًا حقيقيًا للبحر، لابد أن تعطيه مثلما يعطيك، أن تضحى من أجله مثلما يضحى من أجلك.. ألا تفعل ذلك مع الإنسانة التى تحبها بكل جوارحك؟. أرجوك.. حاول أن تتذوق ظهر يدك. أى طعم على لسانك الآن؟ الملوحة.. اليس

كذلك؟ لقد بدأ البحر فعلا بالعطاء، فماذا تراك ستعطيه فى المقابل؟!.

أنا أعرف أن الإجابة صعبة، ولكنى سأتطوع بالإجابة نيابة عنك. فأنا عشت عمرى كله فى البحر، عرفته وموجه يمتد كأرض مستوية ممهدة. ولم أهرب منه حينما طوحت بموجه العواصف الهوجاء، أو حينما عوت فى أجوائه الريح الوحشية. دائما كنت معه. فى الليل او فى النهار لا أفارقه، وهذا هو العطاء الوحيد الذى يقبله البحر.. فلو كنت فى جولة عابره، أو فى لحظة تأمل تحاول أن تنفض الزبد لتغوص إلى الأعماق.. فكل الذى سيحدث أن البحر سيرحب بك، ولكنه لن يقبل أن تقول إنك عاشقه. لأنه فى البداية لابد أن يعشقك.

نعم. العطاء الوحيد الذى يقبله البحر أن تزامله حتى يتحول جلدك إلى صلابة الصدف. ومرة ثالثة معذرة، يبدو أننى قسوت عليك. ويبدو أننى تدخلت بينك وبين البحر. ما علينا لابد أن لك أبًا او جدًا عجوزًا مثلى. ولابد أنك قد تعودت أن تسمع منه مثل هذه الكلمات. نحن فى هذه السن يحلو لنا أن نسخر من كل من هم أصغر منا، ودعنى أهمس فى أذنك أننا نضحك على أنفسنا. برغم السخرية فإن قلوبنا مفعمة بالحسد وبالحسرة على شبابنا الذى ضاع.

لا يهم أن تعرف اسمى. يكفينى أن تقول عنى «البحرى»

الرجل العجوز الذى يعمل فى البحر. زمان كنت أفرح إلى حد الرقص عند اقتراب السفينة من أى ميناء. فهذا معناه عطلة قصيرة، ومعناه حضن دافئ.. ورشفات من شفاه سخية. أما هذه الأيام فأتمنى أن تظل السفينة بين الأمواج إلى ما لا نهاية. لا أحس بالغربة إلا وأنا فوق الأرض، وأخاف من أن تكون نهايتى بعيدًا عن البحر!

معذرة. لابد أن أتركك الآن، يجب أن أنزل إلى الماكينات فعملى ينتظرنى هناك.

٢

أنا لست يونانية أو إيطالية، ركبت السفينة من «بيريه» وساغادرها فى «مرسيليا» وبرغم ذلك فأنا لست فرنسية أيضًا. إذا كانت جنسيتى مهمة فيكفى أن أقول إنى مولودة فى «أوسلو» وأعتقد إلى حد الإيمان أننى ابنة العالم كله. لقد ضاق صدرى بالكلمات التى يحاول الكبار أن يملئوا بها رءوسنا فى البيت.. أو فى المدرسة.. أو حتى فى الجامعة.. إلى متى يظل الإنسان أضعف الحيوانات؟ القطة تهجر صغارها فور أن يتمكن الواحد منهم من أن يجد طعامه. وهكذا بقية الحيوانات. فلماذا يفرض علينا الكبار الوصاية إلى ما يقرب من ربع قرن. كلام فارغ.

أمى ولدتنى وأنا أشكرها من أجل ذلك أحيانًا. أما أبى فقد ظللت الدمية الجميلة التى تنتسب إليه حتى علا صدرى فأصبحت

مشكلة كبيرة بالنسبة له. لماذا يحرص الإنسان بعد ذلك على أن يكون له أم وأب؟. لحظة الميلاد الحقيقية بالنسبة لى هى يوم أن غادرت البيت، الجدران والوطن. والعالم كله هو الوطن الجديد. لا أملك شيئا إلا رغبتى فى أن أعيش، وشوق إلى أن أتعرف على الحياة بنفسى. طبعًا هناك الكثير من المشاكل والصعاب التى تواجهنى وهى ليست المشاكل نفسها التى تواجه الشاب الذى يفعل مثلى. أول الصعاب أننى فتاة، وأننى كما يقولون جميلة. فى كل مكان تطاردنى عيون الرجل. تكبلنى الأنثى فى تكوينى الخارجى وأنا فى الحقيقة كيان متمرد. إذا استلقيت فى حديقة أو حتى تعريت فلاننى أريد أن أفعل ذلك ولست أريد أن أغرى الرجال. من حق لو كنت جائعة أن اقبل دعوتك إلى الطعام.. ولكن ليس من حقك أن تنال جسدى فى المقابل. أرجوك أن تفهم أننى لست راهبة فى معبد. لو أحسست بالرغبة فى الاستمتاع بالحب مع أى رجل فسأكون له بشرط أن تكون هذه رغبته أيضًا.

بالأمس وأنا نائمة فى الحديقة فى انتظار قدوم السفينة اقترب منى شاب أسمر ويده ممدودة بعلبة سجاير. اعتدلت وأخذت منه سيجارة شاكرة فقد كنت أحس بالرغبة فى أن أدخن كنت أعتقد ان الأمر سينتهى عند هذا الحد. ولكنه كان يريد إعطائى العلبة كلها، وكان يريد أيضًا - كما تفضحه عيناه - أن يأخذنى كلى على بعضى ولا يكتفى بكلمة أشكرك مقابل سيجارته. هل من المعقول أن أكون

له بهذه البساطة؟ هل من المعقول أن أمتهن نفسي إلى هذا الحد. لماذا إذن حملت هذه الحقيبة الصغيرة وراء ظهرى، ولماذا إذن قررت أن أطوف العالم دون توقف؟!

تسليتى الوحيدة هى القراءة. سعادتى تتجدد كلما قرأت كتابًا جديدًا. الكتاب الذى انتهى من قراءته تنتهى علاقتى به ففكرة أن تكون للإنسان مكتبة فكرة عتيقة لا تتناسب مع هذا العصر.. الإنسان الذى يحرص أن تكون عنده مكتبة كأنما يحرص على أن يزرع رجليه فى الأرض، لتظل المكتبة أمامه ويظل هو أمامها. جماد أمام جماد. أنا أقرأ الكتاب وأستوعبه ثم أسعى بجد لأن أستبدله بكتاب آخر، استعرضت كل الفلسفات التى ابتدعها الإنسان ابتداء من «ديموقريطس» حتى «ماركوس» ولم أعجب بأى هذه الفلسفات. الفلسفة الوحيدة التى يجب أن يؤمن بها الإنسان هى أن يكون إنسانًا. يرفض الظلم لنفسه أو لغيره. تتلاشى أنانيته ليتألم - حتى ولو كان فى قمة السعادة - لعذاب إنسان آخر مثله يعيش على بعد آلاف الأميال. أعتقد أنه آن الأوان ليعود الإنسان إلى الطبيعة التى هجرها منذ العصر الحجرى. حكاية الأزرار والتكنولوجيا كلام فارغ. النهاية المتوقعة أن الإنسان سيضغط على زر يزيله تمامًا من وجه الأرض.

بعد العشاء سأعود هنا لأشهد الجبلين اللذين ستعبر بينهما السفينة فى ممر «كورنيث». لابد ألا يفوتك هذا المشهد. والآن. بعد إذنك. أنا ذاهبة إلى صالة الطعام!

٣

لقد حرصت على أن أدعوك إلى مكتبي فى هذه اللحظات بالذات، وطبعًا أنت تعرف أننى الضابط الأول فى السفينة. ولابد أنهم قالوا لك إن اسمى «بانتاكوس وسكيريوش» كما قالوا لى إنك تريد معرفة بعض المعلومات عن «سينتيا». دعك من المعلومات الآن حتى تعيش تلك اللحظات الخيالية ونحن نمر فى «كورنيث». الذى يتولى قيادة السفينة الآن ليس أنا أو الكابتن «بانيوق جيانولاتوس».. وإنما مرشد خاص كما هو الأمر عندكم فى قناة السويس.. انظر. إن الشريط ضيق إلى الغاية بين الجبلين. لو انحرفت السفينة عدة سنتيمترات لحدثت كارثة لكن لا تخف. هؤلاء الرجال يعرفون عملهم جيدًا.

هذه القناة ليست كلها مع صنع الطبيعة. الجزء الأكبر عمل خيالى من أعمال الإنسان. كان ذلك سنة ١٨٨٣ أى ما يقرب من مائة سنة. القناة تتخللها أماكن ينخفض فيها ارتفاع الجبال ولذلك - كما ترى - يحرص اليونانيون على أن يقيموا فيها الكازينوهات والملاهى الليلية. تسألنى عن عمل الضابط الأول وأقول لك - وربنا يجعل كلامى خفيفًا على الكابتن - إن الضابط الأول مسئول عن كل شيء، وعملية إبحار السفينة فى البحر عملية معقدة تعتمد على

بحسابات أولا وأخيرًا. والحسابات تساعدها بالطبع الأجهزة الحديثة، وخاصة الرادار والإلكترونيات.

قد تظن أن السفينة تسير فى براح تذهب يمينًا أو شمالاً كما تريد، والواقع غير ذلك. خط سير السفينة مرسوم ومخصص لها حتى لا تتعدى على خط سير أى سفينة أخرى. نعم أنا متزوج وبسبب انشغالى فى عملى طوال الصيف فإن زوجتى تأتى من بيريه لتعيش معى فى السفينة حتى نعود إلى «بيريه» ثانية، بالطبع أنا لا أعمل طوال السنة، آخذ إجازة طويلة فى الشتاء، وهذه الإجازة أقضيها كمعظم أبناء بلادى فى الجبال.

هذه السفينة عمرها الآن أربعون سنة.. كان اسمها الأول «بريتانيا» وكانت تملكها شركة إنجليزية تخصصها للرحلات بين الجزيرة البريطانية وموانى البحر الأبيض. ولذلك فأنت تشعر أن حجرات السفينة - الكبائن - لا تصلح للإقامة الطويلة. فمعذرة إذا كنت تشعر أحيانًا بالاختناق فى حجرتك. بالطبع تصادفنى كضابط أول متاعب كثيرة من الركاب آخر هذه المتاعب كانت مع أحد الأمراء بعد أن احتسى كميات هائلة من الويسكى، ثم هاج كالثور بين الركاب. وخاصة الجنس اللطيف، وفى أول الأمر أخرجت مسدسى وهددته بإطلاق النار إن لم يلتزم بحدود اللياقة ويهدأ. ولكنه ظل على هياجه، وعلى الفور أصدرت أمرى بوضع القيد الحديدى فى يديه وحبسته فى كابينة تحت حراسة مشددة حتى الصباح. وحين أفاق كان

أول شيء فعله أنه جاء إلى مكتبي واعتذر عن كل ما فعله ساعة سكره الشديد.

بصفتك صحفيًا سأقول لك خبرًا لا يعرفه أحد بعد فى السفينة. غدًا سنجرى تجربة غرق وهمية. سنطلق الصفارات التى نطلقها عادة عندما تواجه السفينة العواصف وتوشك على الغرق. فى كابينة كل راكب توجد اللوحة المكتوبة فيها المعلومات التى يجب عليه أن ينفذها فى حالة الخطر. أول كل شيء رقم قارب النجاة الذى يجب عليه أن يتجه إليه أعلى السفينة ويأخذ مكانه فيه بعد أن يرتدى جاكت الحياة. ستكون تجربة مثيرة، فأنت ترى الجميع وقد اختفت أجسادهم تحت هذه «الجواكت» ووجوههم يرتسم عليها الخوف برغم أنها تجربة وهمية. فى مرات نادرة حدثت عواصف حقيقية ونحن نجرى مثل هذه التجارب، وبالطبع الخطر يشغلنا عن أن نضحك على هذه المقارنة الغريبة. وغير المتوقعة. هل أسألك إن كنت تشكو من أى شيء غير ضيق الحجرة المخصصة للإقامة والنوم. عظيم بعد إذنك فالسفينة أوشكت على عبور «كورنيث» وقد انتهى الآن عمل المرشد وبدأ عملى أنا. ما رأيك هل فكرت يومًا فى أن تعمل فى البحر؟ أنا شخصيًا كنت أتمنى أن أكون كاتبًا مثلك أو صحفيًا ولكن يبدو أن الوقت قد فات.. أليس كذلك؟

٤

هذه ليست أول مرة أركب فيها سفينة، سافرت كثيرًا بالبحر إلى بيروت، فأهلى مازالوا يعيشون هناك برغم أنى أصبحت مصرية بحكم الزواج والإقامة. ضوء القمر وانعكاسه المدهش على سطح الماء جاء بى هنا إلى أعلى مكان فى السفينة. المرأة المتزوجة فى حاجة لأكبر قدر من الرومانسية وإلا أصبحت حياتها جحيمًا لا يطاق. لو جاء زوجى الآن وجلس معى فى ضوء القمر فلن تمر دقائق حتى يتطور الحديث بيننا إلى شجار وإلى ما يجب أن نفعله أو ما لا يجب أن نفعله. تزوجت صغيرة ولا أستطيع أن أحدد ما إذا كنت قد وافقت أيامها أم لم أوافق.

أى فتاة تسعد للطبول المصاحبة للزواج والسابقة له وبعد ذلك يشدها الواقع إلى ضرورة إعادة التفكير من جديد. الزوجة الأجنبية - أو المرأة الأجنبية عمومًا - تفعل ما تقتنع به دون تردد. تأخذ القرار هكذا وتنفذه دون أى خوف. ولكن المرأة عندنا تتوق لعشرات الأشياء وتكتفى بأن تنفذ بعضها فى خيالها. ابنتى مازالت صغيرة ولكننى لن أسمح بأن أرسم لها أو يرسم لها أبوها بغير ما تريده هى تمامًا.

كل ما تفعله المرأة عندنا - أو حتى الفتاة - فى الخفاء تفعله الفتاة هنا أمام الجميع. تقبل حبيبها فى اللحظة التى تريد أن تقبله

فيها حتى ولو كان أبوها يجلس على يمينها. ألم أقل لك إن المرأة المتزوجة فى حاجة إلى أكبر قدر من الرومانسية.. بالطبع أنا شاكرة لزوجى اصطحابه لى فى هذه المرحلة، ولكننى أحس بضيق كبير عندما أراه يتعامل معى فى البيت. قد تدهش لأمنيتى الآن أو تنزعج، ولكنى أتمنى أن تقوم عاصفة. وأن تصفر الريح، وأن يتلاعب الموج بالسفينة.. وأن تلطم المياه جوانبها.. وتأكد أنى ساعتها لن أطلق أى صيحة فزع. أكره الرتابة والتكرار وأن أكون فى سفينة تتجول بطول البحر وعرضه ثم لا يحدث شيء خطير يكون مثار الخوف والتعليقات والحكايات التى لا تنتهى. هل أخبرك بشيء. إن امنياتى كثيرًا ما تتحقق. ومن يعرف. فربما تجيء العاصفة الليلية.. أو ربما فى الفجر!!

٥

طال بى الوقت دون أن أتكلم.

نهار بأكمله، وأمسيته.. وأنا أسمع وأسمع..

فى الخامسة صباحًا تمر السفينة على جزيرة «كابرى».. ثم بعد ساعتين تصل إلى «نابولى».. ومسار السفينة الآن كأنه فى دروب الأحلام.

ولكنها الحقيقة..

فأى الأمنيات ستتحقق فى الفجر.. ثم فى الصباح؟!

الجسد.. لغة عالمية

أنا فى دائرة الإحساس، لا يعنينى البحث عن الكلمات المناسبة، منذ أن تعلم الإنسان الكلام وهو يتكلم ويتكلم، ومنذ تعلم الكتابة وهو ضائع مع الحروف الأبجدية، ولكنى لن أفعل ذلك. إن كان من الضرورى أن أنقل إليك، وأنا داخل هذه الدائرة كل ما أحسه وما أشعر به، فأرجوك ألا تطالبنى بمنطق، ولا تتعب نفسك بالجرى وراء المقدمات والنتائج، فالحكاية ببساطة أننى عشت عمرى أسمع كلمات مثل «كابرى»، ومثل «كان» ومثل «الريفييرا» وكنت أعتبرها صفات مكملة لصفات صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حتى أننى تضاربت بالأيدى مع صديق لأنه قال إن الملك يأكل «أم الخلول» مثلنا. يفتحها بأظافره ليظفر بقطعة اللحم الضئيلة المختفية بين الصدفتين

الصغيرتين، كانت وجهة نظرى أيامها أنه ضرورى من وجود من يفتح «أم الخلول» للملك ويضعها فى فمه، ثم بعد مرور السنوات عرفت أنه، كان يجب أن أتشاجر مع صديق لأن الملك لا يحب «أم الخلول» بل لا يحب أى طعام تسبقه كلمة «أم»!

ثم مرة واحدة وجدت نفسى فى كابرى!

ولكى تتم المفاجأة، ولكى تكتمل الصورة الملكية، رأيت فتاتين كانتا منذ لحظات بأكمل عقل قبل الهبوط فى المرفأ الصغير، رأيتهما ترميان ما عليهما من ملابس قليلة، لينضوى تحت الشمس جسدان ليس فيهما أجزاء ناقصة أو حتى أجزاء زائدة، فلالة رقيقة فوق الصدر، ويبدو أنها ليست أى غلالة والسلام، ذلك أن هناك لغة مشتركة بينها وبين الغلالة الأخرى التى تعلو الفخذين، وأنتم تعرفون عنى أننى لا أفهم فى النحت، ولكنى فى تلك اللحظة كنت على استعداد لأن أعالج قطعة رخام بحجم لوحى ثلج ملتصقين لأحيلهما إلى كيان أنثوى أملس الرقبة، نحيل الكتفين، ناهد الصدر، ضامر الخصر، مستدير الفخذين، وكنتم ستشهدان لتمثالى بالروعة، ولكن أين يذهب التمثال أمام ما أراه الآن، بل ما ظللت أراه منذ أن رست السفينة فى «نابولى»؟. الرؤية تمتزج بإيقاع موسيقى فى كل شىء، فى اللغة، وفى ذلك العناق النادر بين الجبال والخضرة وزرقة البحر، وفى الخطوات التى لا تكاد تلامس الأرض، ولكنها خطوات الحياة كلها.. الرغبة فى البقاء.. الشوق لتحقيق الذات، أو لتلاشيها،

أنت فى كل مرة الرجل، وها هى ذى الطبيعة تفتح لك ذراعيها بكل سمات الأنوثة، لو أشعلت سيجارة الآن وسحبت أنفاسها فى استمتاع، فإن ما تحسه هو ذات الإحساس الذى يسبق متعة الحب، أو الذى يأتى بعدها.. فماذا أقول لك وفى تنبعث منه سحابات الدخان ؟!

مات فاروق الأول، فلاستمتع أنا..
ولأغرق فى أحضان كابرى!

* * *

كأنها مستلقية فى فراشها، وكأنها تأكدت من أنها أغلقت الباب من الداخل، كانت هى مستلقية أعلى الدرجات القليلة المؤدية إلى بلاج كابرى. وإلى جوارها فتاة أخرى بالبيكينى أيضًا ولكنها جالسة فى وضع الذى يريد أن يكتب، وكانت فعلا تكتب خطابًا ولم يمهلنى رفاق الرحلة لأقف وأتأملها فموعد الغداء قد اقترب، ولابد من ركوب « التليفريك » لصعود الجبل وتناول الطعام فى أحد « الكازينوهات » فوق، وقبل أن أخطو بعيدًا عنها، سمعت كلمات التى تكتب الخطاب وبلغة إنجليزية مفهومة :

- هل أنت صاعد إلى فوق ؟

وأشارت بيدها إلى أعلى الجبل المكسو بالخضرة وبالورود البنفسجية والحمراء، فتوقفت خطواتى على الفور لأجيبها :

- هم يريدون ذلك.. و..

قاطعتنى قائلة :

- من أين ؟

قلت :

- من مصر..

تعالت ضحكاتها كنغمة هارب فرعونى، ثم قالت فى سعادة ظاهرة :

- لقد كسبت الرهان.. صديقتى كانت تقول إنك من المكسيك..

ورأيت أن أحيى صديقتها المستلقية كأنها فى حجرة أغلقت بابها من الداخل، وكان ردها ابتسامة وهزة من رأسها، فقلت لها :

- آسف لخسارتك الرهان بسببنا..

وكان ردها ابتسامة، الابتسامة نفسها وهزة أخرى من رأسها.

وتعالت من جديد الضحكة الموسيقية لتقول صاحبتها :

- هى سويدية لا تعرف الإنجليزية.. وعلى العموم أنا أرجوك فى خدمة.. هل من الممكن أن تأخذ هذا الخطاب معك لتسقطه فى صندوق البريد.. لقد ألصقت به الطابع و..

تزاحمت على لسانى الكلمات المقاطعة لها، والمبدية الاستعداد لتنفيذ هذه الخدمة البسيطة، وعندما ابتعدت خطواتى عنها قفز إلى ذهنى تساؤل من تلك التساؤلات الكثيرة التى لا ترقى إلى درجة

الأهمية الكبيرة، ولكنها تتكرر كلما كان الإنسان فى حالة تجوال أو سياحة، تساؤل يبدو ساعتها عظيم الأهمية وقد حشدت الطبيعة فى خلفيته كل ما تمتلك من سحر، وجمال، وروعة..

لماذا تقف اللغة عائقًا بين الإنسان والإنسان، بل لماذا تقف أحيانًا بين الرجل وفتاة مثل تلك الفتاة، كأنها خلقت لتوجد فى هذا المكان بكل ما فيه من فتنة؟.. لماذا؟

الإشارات للمطالب الهينة، البسيطة..
ولكن الجسد.. إنه وحده لغة عالمية!!

* * *

بعد الصعود «بالتليفريك» والهبوط، قالوا إن أمامنا ساعة قبل أن نأخذ القوارب لنذهب إلى «المغارة الزرقاء» بعد لفة كاملة حول جزيرة كابرى، وساقتنى خطواتى إلى كشك لبيع الصحف والمجلات، وعندما رأيت الرجل الذى يبيع الصحف أحسست كأننى أستيقظ من حلم وردى إلى واقع تفرش كل أرجائه شعاعات الشمس اللافحة، إيطالى عجوز يرتدى ملابس تقاربه فى السن، ولا ترتسم على ملامحه واحدة من إبداعات الطبيعة التى تحيط به، كان يتكلم الإنجليزية بصعوبة، ولكنه تواق للحديث مع كل من يشترى منه، وكان يكفى أن يسمعنى وأنا أسأل عن سبب الارتفاع الجنونى فى أسعار كل شىء هنا، ثم وأنا أقول له إن الإيطاليين بارعون فى استغلال الجيم والميم

والألف واللام فى «جمال» هذه الجزيرة الأسطورية.. كان يكفى ذلك لينطلق فى كلمات متقطعة ولكنها مليئة بالحماس.. ومصحوبة بحركات الأيدى التى تكاد تتكلم نيابة عن لسانه، بل عن جسده كله:

«أنا إيطالى.. فهل ترانى قد استفدت من تلك البراعة.. أنا أبيع الجرائد والمجلات.. فهل أستطيع أن أكذب عليك وأرفع سعرها.. إن الرقم أمامك مكتوب بالحروف اللاتينية.. عندما تتكلم عن البراعة أو عن الاستغلال.. فأرجوك أن تفهم أنها ليست مسألة شائعة يستفيد منها الجميع.. وإلا فهى ليست براعة على الإطلاق.. البراعة أن يستفيد من أموال القادمين هنا أقل عدد من الناس.. حتى تكون الفائدة كبيرة.. ودعنى أهمس فى أذنك.. هذه الجزيرة ليس اسمها «كابرى».. هذا الاسم مقصور على أجزاء من الجزيرة وخاصة تلك التى تعلو الجبل.. ما هو أمامك ليس «كابرى» إنه «مارينا».. لقد كانت المهنة المربحة لنا هنا صيد السمك، وما زالت هنالك الأسر الكثيرة التى تعيش على صيد السمك.. ولكن الصورة تغيرت تمامًا عندما قرروا أن تكون الجزيرة كالفرخة التى تبيض ذهبًا.. سياحة؟.. ولكن ماذا يهمنى أنا وماذا يهم امرأتى وأولادى.. نحن نريد أن نعيش فى أمان وفى هدوء.. ولكن كما ترى لقد تحولنا وتحولت جزيرتنا معنا إلى فرجة للعالم كله.. لقد أصبح علىّ أن أقسم إنى إيطالى فى كل مرة أريد أن أشترى فيها شيئًا حتى لا يبيعوا لى بالأسعار نفسها التى يبيعونها للوافدين على الجزيرة..

طبعًا أنت تقول إن مالك الشيء لا يحس بما فيه من مزايا ومن جمال.. ولكن.. من قال لك إنى أملك أى شيء.. إنها ياصديق القصة القديمة.. الفقير.. والغنى.. ولا تصدق الحكاية الكاذبة عن الذى كان معدمًا ثم أصبح يمتلك الملايين. وإلا فأخبرنى كم يبلغ عدد الذين تحولوا من معدمين إلى أصحاب ملايين.. واحدًا فى المليون.. اثنين فى شعب بأكمله.. عشرة فى العالم كله؟.. البراعة والاستغلال صفات متوارثة يحافظ عليها أصحابها بالنصب وأحيانًا بالقتل.. ولكن من يهتم الآن بالقاتل أو المقتول!؟

كلمات الرجل العجوز شدتنى من حلم «كابرى» الوردى..

جسده كان ينتفض بالغضب، وكأنما كان به شوق كبير لأن يزيح عن صدره كل هذه الكلمات..

وكان جسده، وغضبه - أيضًا - لغة عالمية!

* * *

فى المساء التأم شملنا كالعادة فوق ظهر وبين ردهات السفينة، وكان الدكتور عادل طبيب الباخرة يقول: «الآن عدنا إلى بيتنا».. وهى الجملة نفسها التى يقولها كلما عدنا من تجوال طويل فى أى من الموانى، ثم نصعد درجات الباخرة ليتلقفنا البحر من جديد، كان الدكتور عادل قد بدأ يواجه مشاكل كثيرة مع بقية الركاب، فهو أساسًا جراح، وقد اختاروه طبيبًا للباخرة بالمصادفة، تغيب الطبيب

الأصلي فعرضوا عليه المهمة على أن تكون هذه الرحلة فقط، ووافق، ويبدو أن علاقته بالأمراض الباطنية تقف عند وصف حبوب مقاومة دوار البحر، وعندما تجمع عند باب عيادته، التي لا تتعدى مساحتها نصف متر في نصف متر، ذلك الطابور الطويل من المرضى بالروماتيزم وبالقلب، وحتى بالسكر، يبدو أن الدكتور عادل كان يصف لهم جميعًا حبوب دوار البحر نفسها، وبدأ التذمر الذى يوشك أن يؤدى إلى ثورة على السفينة.. وسألته ضاحكًا «إيه الحكاية؟»، ورد وعلى جبينه تلتمع حبات العرق «أعمل إيه.. مافيش غير الحبوب دى وشوية حبوب للصداع.. والضابط الأول قال لى اتصرف فى حدود الموجود!» غير أن هذه لم تكن مشكلته الوحيدة.. فبعد زيارة «كابرى» وبعد مشاهدة الاستعراض المثير للحسناوات من كل البلاد، تذكر الدكتور عادل أنه أعزب، وأنه قد مضى عليه عدة سنوات منذ تخرجه فى كلية الطب وهو لم يتزوج بعد.. وكان قراره المفاجئ أن يتزوج حالا، حاولت أن أناقشه، وأن أقنعه بأنه يمكن الانتظار حتى الوصول إلى الإسكندرية، وبحركة خاطفة من يده أشار إلى فتاة مصرية جميلة ولكنها جادة الملامح، ثم قال لى:

«هى دى اللى تنفعنى زوجة فى أسوان».. وقلت له: «عظيم جدًا.. ولكن أليس من الأفضل أن تحاول التعرف عليها أولا وبعدها».. وقاطعنى على الفور: «أخاف لو تكلمت معها أن أغير رأيى».. ورددت عليه فى دهشة: «وهل تريد الزواج منها دون

علمها». قال فى بساطة: «يكون أحسن.. ما أنا ضرورى حا كلم أبوها وأهلها».

أحسست أنه واقع فى ورطة كبيرة وقد وقفت قبالة العيادة، سيدة متقدمة فى السن وصوتها يرتفع على صوت الموج: «انت دكتور انت.. أحسن لك تعالج الحمير».. كان يتجاهلها ويتجاهل صوتها العالى، ولكنى رأيت سمرة وجهه وقد احتقنت بالحمرة عندما مرت فى اللحظة نفسها تلك الفتاة التى قرر بينه وبين نفسه أن يتزوجها، وأسرع دون أى كلمة بإغلاق باب العيادة ثم هرول فى خطوات خاطفة قاصدًا السلم المؤدى إلى أعلى السفينة، كان ظاهرًا من طريقته فى الصعود أنه ينوى القيام بعمل خطير، الباخرة الآن قد ابتعدت عن الميناء الإيطالى كثيرًا، والموج لسوء حظه فى تلك الليلة كان عاليًا ومزمجرًا.. فماذا تراه فاعلا بنفسه!؟

أسرعت وراءه وصوت السيدة الغاضبة مازال يطارده باللعنات، ولكنى دهشت عندما لم أجده فوق، طفت بين قوارب الإنقاذ المثبتة عند حافة السفينة، ونظرت جيدًا فى قاع حوض السباحة الصغير، ثم نظرت إلى مياه البحر من كل الجوانب، ولكنى لم أعثر له على أثر، كنت حتى هذه اللحظات أعتقد أنها حكاية طريفة يمكن أن تنتهى على خير، ولكنَّ اختفاءه هذا السريع بدأ يشع بموجات القلق والخطر، وبغير وعى رحت أصعد وأنزل كل الدرجات الداخلية بالسفينة، ثم لم أجد أمامى إلا أن أذهب إلى حجرتنا المشتركة،

وعندما فتحت الباب وصدرى يلهث، رأيته ممددا فى سريره الأرضى وكأن شيئًا لم يكن، وقال على الفور: «امرأة مجنونة.. كيف تأتى إلى مثل هذه الرحلة وعندها ألف مرض ومرض!؟» وقلت له وأنا أحاول أن أخفف عنه: «إذن كان عليها أن تصحب طبيبها الخصوصى».. وقبل أن أرد عليه قال وهو يهرب بعينيه إلى الطاقة المطلة على البحر: «ماذا ستقول بنت الناس الآن؟.. كيف كانت انفعالاتها عندما رأت وسمعت ما حدث!؟» ووجدتنى أنطلق ضاحكًا ثم أقول له: «وما شأنها بك»؟.. فعاد يقول: «ماذا نقول.. ألن تصبح زوجتى.. هل سترضى أن تتزوج دكتور حمير!؟».

* * *

«نحن فى بيتنا الآن»..

تحول جميع الركاب إلى شلل، ولم يعد الأطفال يحسون بالرهبة من أى شىء، تتوالى ألعابهم وكأنهم فى حديقة متعددة الطوابق، وحتى عندما بدأت السفينة مع ارتفاع الموج تهتز وتتمايل بعنف. كانت المسألة تبدو طبيعية بالنسبة للجميع. وعندما يشعر أحدهم بالملل من الجلوس فى الصالون ينسحب ولسان حاله يقول «أنا مروح بقى».. ثم يختفى فى حجرته، وكنت أظن أن تراقص السفينة سيحول بين عشاق النوم فوق ظهرها وبين البقاء هناك فى ظلمة الليل، ولكن عندما صعدت إلى هناك رأيت غير ما كنت أتوقعه..

أكثر من عاشقين فى قبلات وعناق طويل صامت.

القبلات متناثرة فى كل الأركان، دون أى التفات لتمايل السفينة أو لصوت الموج المزمجر..

دون أى التفات للخطوات المقتربة أو المبتعدة.

وكنت أقول لنفسى وأنا أهبط الدرجات إلى بطن السفينة:

حقيق.. الجسد.. لغة عالمية!!

كونشرتو القمم الزرقاء!

١

فى تلك اللحظات، والليل يلف كل شيء بغلالة من الهواء النشط، لاح نذير الخطر، الأمواج التى كانت كريمة مع السفينة إلى أقصى الحدود تتمرد الآن وتعلو فى قمم متلاطمة لا تهدأ، وتتابع فى ذهنى على الفور ذلك الشريط من الكلمات التى قرأتها عن البحر عندما يثور، وتوالت الصور التى شاهدتها فى الأفلام عن العواصف، وعن الأمواج التى تتقلب إلى جبال وأودية وعن الغيوم والسحابات السوداء، وبدأت أستشعر الخوف! الكرسى الذى أجلس عليه، والمنضدة التى أمامى، الاثنان يتمايلان. وفى ثوان خاطفة أرى امتداد البحر وموجه المتراقص، ثم تعلو السفينة فأرى من المكان نفسه السماء وقد التمعت فيها النجوم، وكأن امتداد البحر قد تلاشى مرة واحدة!

الحركة - حركة الركاب - تكاد تختفى من ممرات وصالون السفينة، ويبدو أن الكثير منهم قد فضل أن يعتكف فى الكبائن، ورأيت أنه من الحكمة أن أفعل أنا ذلك أيضًا، ولكن فى اللحظة نفسها رأيت أمامى «بانتاكوس» الضابط الأول بالسفينة، كانت تنبعث من فمه صفارات بلحن لا أعرفه، وملامحه تبدى سعادة اعتقدت لحظتها أنها لا تتناسب مع حالة السفينة وسط ذلك الجو العاصف، وحاولت أن أبتسم وأنا أراه ينظر ناحيتى، ورد على ابتسامتى بأن جاء وجلس أمامى على الكرسى المقابل، ثم قال بعد أن حيانى تحية المساء :

- الجميع قد ناموا.. فلماذا أنت ساهر.. أهو الأرق !؟

قلت لنفسى قبل أن أرد عليه، هذه هى طريقة المضيفة الجوية عندما تكون الطائرة فى خطر، فهل يتبع الضابط الأول بالسفينة الطريقة نفسها !؟.. ماذا تراه يقصد بسؤاله ؟.. لا أعرف.. وقررت أن أدخل فى الموضوع مباشرة :

- السفينة ليست فى حالة عادية.. أليس كذلك ؟

انحدف رأسه إلى الوراء فى ضحكة عالية ثم عاد رأسه فى مواجهتى ليقول فى استنكار :

- ليست فى حالة عادية ؟.. من قال ذلك !؟

قلت وأنا أمسك المنضدة المتمايلة بكلتا يدى :

- هذا التمايل.. وذلك الهواء النشط فى الخارج.. أقصد العاصفة و..

قاطعنى وملامحه توحى بأنه يود أن يطلق ضحكة ثانية:

- وهل تسمى ذلك عاصفة؟.. إنه شىء عادى نتوقعه فى هذه المنطقة.. أما عن تمايل السفينة فكل ما فى الأمر أنى أصدرت أوامرى بزيادة السرعة!

أدركت قبل أن أرد عليه - ربما لأول مرة - أن الكرسى الذى أجلس فوقه مثبت فى الأرضية، وكذلك المنضدة. فعدلت عن زحزحة الكرسى إلى الوراء وقلت له:

- لا أعتقد أن زيادة سرعة السفينة تسبب كل هذا التمايل ثم إن شكل الموج فى الخارج ليس كما تعودنا فى الأيام الماضية لابد أن هناك سببًا آخر!

مد يده لولاعته ليشعل لى السيجارة التى كانت مدلاة بين شفتى دون إشعالها، وأشعل سيجارته، ثم قال فى هدوء حسدته عليه:

- هل تعتقد أنه لو كان هناك أى سبب آخر.. أقصد لو كان هناك أى خطر.. كنت ستراني هنا.. وكنت سأجلس معك كما أنا جالس الآن؟!.. بالطبع لا.. ولعلمك فإن الحالة التى عليها الموج الآن هى حالته الطبيعية فعلا.. كونك رأيت الموج منبسطا طوال الأيام الماضية فهذه ليست حالته العادية. وهذا من حسن حظ الذين جاؤا معنا فى هذه الرحلة.. وعلى العموم لا تنزعج.. فقرب الفجر

ستعود السفينة إلى سرعتها العادية.. وستقترب أكثر من الشاطئ الإيطالى. وبالذات شاطئ «بورتوفينو». وساعتها ستنسى كل ما فكرت فيه الآن!

أحسست بالخجل، وحاولت أن أقول شيئًا أغير به مجرى الحديث، ولكن أفكارى لم تسعفنى، فآثرت الصمت، وسمعته يقول ثانية:

- هل تعرف ماذا أحس عندما يعلو الموج كما هو حادث الآن.. أشعر كأنى أستمع إلى كونشرتو.. آلات الفرقة الموسيقية كلها تهدأ لينبعث صوت واحد هو صوت الكمان.. أو البيانو.. والآلات العازفة هنا هى حركة السفينة وذلك الهواء النشط، وحتى تلك النجوم المتناثرة فى السماء، تهدأ، بل تتلاشى، لينبعث صوت واحد يدخل فى حوار معها.. ذلك الصوت هو صوت الموج.. لا أقصد صوته بالضبط. وإنما أقصد صورته وقد تحول إلى قمم زرقاء امدادها لا نهائى.. وأمام هذه الصورة، وبانبعاث ذلك الصوت.. تكتمل سعادتى وأشعر حقيقة أننى رجل بحر!

جاء أحد العاملين بالسفينة ومال على أذنه يهمس ببعض الكلمات، ورأيته يهب واقفًا ليستأذن فى الانصراف، وعندما ابتعدت خطواته، تعلقت نظراتى بالامتداد اللانهائى الذى كان يتكلم عنه.. وكان يظهر ويختفى من جديد مع تمايل السفينة وتأرجحها.

هل أستطيع الاستمتاع بذلك «الكونشرتو» مثله؟

فى الفجر - كما قال - ستعود السفينة إلى سرعتها العادية..
وأعتقد أنه من الأحسن أن أذهب لأنام.. حتى يجىء الفجر!

٢

الميادين فى «نابولى» كثيرة، والحدائق أكثر، والتماثيل الرخامية والذهبية منصوبة فى كل مكان.. وكنا يوم أحد. وكانت أجراس الكنائس تدق فى وقت واحد وكأنها سيمفونية تدعو إلى الله. وخطوات الناس متأنية ليست مدفوعة بمواعيد العمل. وأغلب المحال مغلقة. وعندما أترك الميدان تدفعنى قدماى إلى الشوارع الجانبية. ومن الشوارع إلى الحوارى وأشعر وأنا أسير فى حيزها الضيق إلى أبعد الحدود كأن الساكنين فى هذا الجانب يستطيعون أن يمدوا أيديهم ليشدوا على أيدى الساكنين فى الجانب الآخر.. وفعلا.. عندما رفعت نظراتى إلى أعلى رأيت الحبال المشدودة بين شرفات الجانبين وعليها الملابس المنشورة حتى تجف!

وعند ناصية أرى سيارة سوداء كبيرة مقدمها وجوانبها مغطاة بلعب الأطفال، وغير بعيد عنها عربة صغيرة فوقها براويز لصور مرسومة بالزيت وكلها تقليد للوحات أشهر الرسامين العالميين.. بعد أن اشتريت لعبة من هنا، ولوحة من هناك، سألت صاحب السيارة:

- هل هذه سيارتك؟

ورد بانجليزية متعثرة :

- نعم.. ماذا فى ذلك.. إننى عندما أفرغ من البيع.. أنطلق بسيارتى إلى أى مكان أريد.. أما تلك العربة الصغيرة فنتركها هنا.. طريقة مبتكرة أليس كذلك.. إنها فكرة زوجتى التى باعت لك هذه اللوحة الصغيرة الآن!

وأعرف أن اسمه «ماركو» واندهش عندما يفخر بأنه «فاشستى»، ويدافع عن ذلك بقوله بالطريقة نفسها :

- وماذا فى ذلك.. أعضاء الحزب الفاشستى الجديد كثيرون هنا فى ايطاليا.. أكثر من مليونين.. لا تصدق ما يشاع عنا فى أننا دعاة حرب.. فى الحقيقة نحن نقدس القوة.. ودعوتنا من أجل أن تسترد ايطاليا مكانتها فى أوربا من جديد.. نحن لا نرضى بأن نكون ذيلاً لأحد.. لا للشرق ولا للغرب.. ايطاليا.. لإيطاليا فقط!

وأقول له وقد لاحظت احتقان عينيه بالحمرة :

- هل اشتركت فى الحرب العالمية الأخيرة؟

ويزداد انفعاله ويقول ويداه تتخبطان فى الهواء :

- أفهم ماذا تقصد بسؤالك.. لقد اشتركت فى الحرب فعلاً.. وأسرت.. لقد انهزمنا لأننا كنا أغبياء بتحالفنا مع هتلر.. الإيطالى يختلف كثيرًا عن الألمانى. الإيطالى فنان فى كل شيء.. والألمانى مثل بندول الساعة.. حركة منتظمة ولكن بدون عقل.. والفنان والغبى لا يتفقان.. ومع ذلك فقد وقعنا فى هذه الغلطة.. ولكن الأمر

الآن يختلف.. يختلف كثيرًا!

أعود ثانية إلى الميدان الواسع، شاب وفتاة يلتقيان فى قبلة طويلة بأحد أركان الحديقة التى تتوسط الميدان.

وأجراس الكنائس تعلو من جديد!

..

٣

فى اليوم الثانى لنا فى «نابولى» كانت الصورة مختلفة تماما.

طوابير السيارات تسد الشوارع، وأغلبها سيارات صغيرة ذات طابع خاص ولا تتسع إلا لاثنين، والإيقاع سريع فى كل شىء، والإيطاليات المسرعات إلى العمل نوعان.. إما رشيقة كنجمات السينما.. أو ضخمة فى نصف حجم الفيل ونادرًا ما كنت أرى الوسط بين الاثنين.

وكالعادة تزاحم ركاب السفينة على المحال التى حرموا منها فى المرة السابقة بسبب عطلة الأحد، وكان أكثر الزحام على المحل الرئيسى فى «نابولى» واسمه «أوبيم»، وهو من نوع «السوبر ماركت» الذى تجد فيه كل شىء.. وكان من الممكن أن يمر الأمر بسلام لولا صيحة الفزع التى أطلقها صديقنا «سيد».. فقد اختفت فجأة «ربطة» كبيرة دفع فيها كل ما معه من «ليرات» إيطالية.. ورحت معه نتجول فى جميع أنحاء وأدوار المحل بحثا عن الربطة لكن دون جدوى.. البائعات فى المحل لا يفهمن غير الإيطالية، وتنفسنا

الصعداء عندما وجدنا واحدة تعرف بعض الكلمات بالإنجليزية، وكان الحل الذى رأته أن كتبت على ورقة بعض الكلمات الايطالية، وطلبت منا أن ندور بها فى أنحاء المحل ليقرأها كل من نقابله لعله يكون قد صادف الربطة. وفعلنا ما طلبت منا.. ولكن دون أى فائدة.. ضاعت الربطة وضاعت الليرات!

بعد ساعات، والسفينة تتوسط البحر، كان صديقنا «سيد» مازال يتحدث عن الذى حدث له فى «نابولى»، ثم هبّ مرة واحدة واقفًا عندما سمع واحدًا من الركاب يقول إنه وجد «ربطة» دون صاحب فى الركن الذى كان يتزاحم فيه ركاب السفينة، وأسرع «سيد» معه إلى حجرته.. وكانت المفاجأة الكبيرة.. «الربطة» المفقودة أمامه!

كان يقول وهو يضرب كفا بكف: «فقدتها فى نابولى.. ووجدتها فى عرض البحر»!

سألته: هل كنت تأمل فى أن تجدها ثانية؟

وقال: اطلاقا.. لقد أبحرت السفينة وفقد الأمل تماما.. ولكن الذى يحيرنى.. هو كيف تأكد من وجدها أنها تخص واحدًا من ركاب السفينة.. هل أجد عندك الجواب لهذا السؤال؟!».

وابتسمت دون أن أرد عليه.

وأصر على أن يحتفل بهذه المناسبة.

واحتفلت معه دون أن أعرف أننى تنتظرنى بعد لحظات أعجب مفاجأة فى حياتى!

٤

كنا فى صالة الطعام، وكنت أجلس إلى المائدة المخصصة لنا والتى لا تتغير طوال الرحلة.. «سيد» و «لطفى» وأنا.. وفى أول الأمر جاء «تونى» الذى يقدم لنا الطعام ليضع أمامى زجاجة «نبيت» يونانية، وقلت له على الفور إننى لم أطلب هذه الزجاجة.. ومال ليهمس فى أذنى.. «ستعرف بعدين».

وانشغلت فى تناول الطعام ثم فجأة دوت فى الصالة أصوات فرقة موسيقية قادمة وهى تنشد الألحان المرحة.. ثم ظهر وراءها طابور يتقدمه الضابط الادارى للسفينة وعلى يده «تورته» بها شمعة واحدة مشتعلة.. وكنت سأنشغل فى تناول طعامى ثانية، عندما رأيت ما دفع الدماء إلى وجهى وجعلنى أرتبك وأكاد أقوم هاربا من صالة الطعام.. كانت الفرقة الموسيقية تتجه ناحيتى.

وكان الطابور الطويل يتجه ناحيتى أيضا.

وتوقف الضابط الادارى أمامى تماما، ثم مال على ليقول وابتسامة واسعة تحتل وجهه كله: «كل سنة وأنت طيب»!

وساد الهرج فى صالة الطعام، وتعلقت كل النظرات بى، ثم تسابق الذين يحيطون بى ليشدوا على يدى ويهنئونى بعيد ميلادى. كل

هذا وأنا أكاد أكون فى حالة يرثى لها من اللاوعى.. عيد ميلادى؟.. كيف عرفوا ذلك، ولماذا لم يخبرونى قبل أن تجىء هذه الفرقة الموسيقية، وقبل أن يهاجمنى ذلك الطابور الذى يتقدمه أحد الضباط؟!

ويقول الأصدقاء فى آخر الليل، أننى تمالكت نفسى بعد لحظات، وأمسكت السكين لأقطع أول قطعة من «التورتة» وأهديتها إلى كابتن السفينة.. ثم تمالكت نفسى أكثر وأنا أرد على تحيات المهنئات والمهنئين بعيد ميلادى.. ثم أسرعت هاربًا من صالة الطعام وأنا أكاد أقع على الأرض!

٥

كل شىء يجرى فى سرعة مذهلة بعد أن غادرنا السفينة وركبنا السيارات التى ستذهب بنا إلى «الريفيرا» الإيطالية.. تعليقات المرشد السياحى لا تتوقف، والسيارة تعلو بنا بين الجبال ولا تريد أن تتوقف حتى عندما بدأت تلامس السحاب، سلسلة متصلة ومتناسقة بالخضرة وبالورود من الجبال العالية، الشاهقة، والملاصقة لشاطئ البحر وبيوت صغيرة متناثرة فى أنحاء الجبال ولا يمكن أن تصدق أن يعيش فيها بشر.. وأكاد ألهث وأنا جالس مكانى.

السيارة معلقة أعلى الجبل.. لتنحدر الخضرة تحتها وتنحدر حتى تلامس زرقة البحر.. وأحاول أن أمزج بين استمتاعى بقمة جمال

الطبيعة التى تحيط بى. ورغبتى فى معرفة كل شىء عن هذا المكان..
ولكن كلمات المرشد كانت لا تسعفنى.. كلمات سريعة وسيارة أسرع.

نحن الآن فى شواطئ «مرجريتا» و «رابللو».. القمم العالية التى وصلنا إليها الآن هى قمم «كامولى».. انظروا.. هناك تمثال المحارب والسياسى القديم «غاريبالدى» بالتأكيد أنتم تعرفون أنه هو الذى وحد إيطاليا وسيسليا.. ثم انظروا إلى هذا التمثال.. لابد أنكم تعرفون صاحبه.. إنه «كريستوفر كولمبس» والإثنان من أبناء «جنوة».. هذه الأماكن الساحرة شهدت أكثر مواقع الرومان فى العصور القديمة.. كما أنها شاهدت المعاهدات التى وقعت فى نهاية الحرب العالمية الثانية.

هذا المستشفى الذى يعلو الجبل، إنه مستشفى «جازلين». وهو مليونير إيطالى معروف ماتت ابنته الوحيدة فقرر أن يبنى هذا المستشفى ليخصص لعلاج الأطفال.. إنه أكبر مستشفى للأطفال فى أوربا كلها وقد تكلف بلايين الليرات.. نعم.. تستطيعون الآن النزول من السيارة لدقائق معدودة حتى تلتقطوا ما تريدون من صور ومناظر!

وقلت لنفسى «بل لكى نلتقط أنفاسنا»!

وكأنما الرجل يقرأ أفكارى.. فقد قال لى على الفور: «معذرة لأننا نسرع فى تجوالنا.. فلا وقت لدينا.. والسيارة ستعود من طريق آخر يعتبر معجزة هذا العصر. أنفاق بطول مئات الكيلو مترات وتخترق هذه الجبال التى صعدناها واحدًا بعد الآخر.. انفاق نحتها الإيطاليون فى بطن الجبال على مدى سنوات طويلة.. وبسببها سنعود

فى وقت أقصر.. وربما نستطيع تمضية بعض الوقت على «الريفيرا» الإيطالية.

وعدنا نلهث من جديد!

٦

فى طريق عودتنا من «جنوة» إلى السفينة.. بدأت أدرك أنه مكتوب علينا الآن أن تكون علاقتنا بالأرض علاقة خاطفة.

البحر فى الأيام السابقة كان للمتعة والتأمل.

والأرض الآن هى لحظات التأمل والمتعة.

يتلقفنا البحر.. ونقف وقفات طويلة لنستطلع الأرض وما عليها من جبال.. ومن خضرة.. ومن عناق مع السماء.. ثم نرى كل ذلك وهو يختفى لتنفرد أمامنا.. وحدها.. القمم الزرقاء!

الحلوة مرسيليا!

لم أكن قد شاهدت من قبل تمثالاً من الذهب الخالص. ولم أكن قد شاهدت تمثالاً يقف شامخًا على مثل ذلك الإرتفاع الهائل.. الذى يعلو الجبال كلها.. ويطل بيد مبسوطة. حانية على الخليج كله بما فيه من بيوت.. وخضرة. وزرقة البحر.

التمثال للسيدة العذراء.. والكنيسة هى «نوترادام دى لاجارد» والخليج هو «مرسيليا». وأنا واقف أشهد ذلك كله بجوار قطعة رخامية نادرة تمثل السيد المسيح.. والشعاعات الذهبية المعانقة لشعاعات الشمس تضوى بالجلال. داعية إلى باب الكنيسة.. وإلى رحابها المتسعة فى دورين يعلو كل منهما الآخر. وعندما أدخل أشعر كأن الزمن قد توقف مرة واحدة، بعد ما غادرت السفينة فى الميناء

كنت أسرع خطواتى لألتقى وأصافح كل ما يؤكد أننى فى « فرنسا » الآن. ولكن السيارة أخذت ترتفع بنا وترتفع.. ثم توقفت عند الباب الذى تعلوه « السيدة الحارسة » فكان اللقاء وكانت المصافحة مع شعاعات ذهبية تجمعت لتشكل « فرنسا » فى عينى وقد أحاطتها حالة من الجلال. ومن الجمال المقدس!

وعندما هبطت الجبل.. لم يفارقنى ذلك الانطباع. وكان كل شىء حولى فى « مرسيليا » فى صلاة طويلة لا تنتهى. البيوت الصغيرة المتشابهة، المتناسقة، والمساحات الخضراء التى يحرصون عليها حرصهم على الإنسان. والسيارات التى تنساب فى الطريق وكأنها بغير موتورات. وخطوات الناس التى تكاد لا تلامس الأرض. ثم أصواتهم التى تقترب من الموسيقى الخافتة. ولا تتعداها إلا إلى الهمس..

أخذتنى الجلالة، وأصبحت لا أرد على رفاق الرحلة إلا بالإشارات وعندما عرض واحد منهم أن نجلس فى أحد المقاهى لنلتقط أنفاسنا لم أعترض وإن ظللت على ما أنا عليه من صمت. أجلس بينهم وذهنى شارد. هل يمكن أن يكون إيقاع الحياة بهذه الصورة. وهل الإيقاع فعلاً حالم إلى هذا الحد؟.. لا أعرف.. فى اليونان وفى إيطاليا إيقاع الحياة كموسيقى « الجاز » الصاخبة.. ولكن ما استشعره هنا.. فى تلك اللحظات. كأنه أنغام « التانجو ». ولم أكن أدرك أن صديق « الدكتور عادل » يشدنى من يدى فى عنف.

وعندما التفت إليه أخيرًا. انتبهت إلى أنه يقول :

« لقد اتفقنا على أن نذهب إلى أحد الملاهى الليلية »

كدت أستنكر ذلك. ولكنى قلت وأنا أشير إلى ضوء النهار :

« الآن ؟.. إن الشمس لم تغب بعد ».

وكان « الدكتور عادل » يضحك وهو يقول :

« هل نسيت اننا فى فرنسا.. لابد أن نستمتع بوقتنا الضيق هنا إلى أبعد حد.. ولعلمك الملاهى هنا مفتوحة ليل نهار ».

احسست أنه ينتشلنى من عالم آخر. ورددت فى دهشة :

« لا أصدق » !

فقال وهو يشدنى من يدى لنغادر المقهى :

« تعال لترى بنفسك.. أنا لا أعرف ماذا حدث لك مرة واحدة.. الذى أعرفه أن مرسيليا ميناء.. والموانى كلها متشابهة » !

وسبقنى فى الطريق متجاهلاً كلماتى التى تستنكر ولا تصدق !

* * *

فى الطريق، كنا نسير. دون أن ندرى. فى طابور. كل منا مشغول بأكل التفاحة التى فى يده. وإن تلاقت نظراتنا فى اللحظة التى تعبر فيها فتاة ينسدل على كتفيها شعر ذهبى وتكافئ العيون المتعلقة بها بابتسامة رقيقة ثم تمضى بعيدًا كالطيف. وتوقفت أمام محل لبيع العطور. ولم أتردد فى أن أدخل وأنا أتوقع أن الطابور سيفتقدنى

ويجيء ورائى هنا. ولكنى عندما عدت بنظراتى إلى الطريق لم أجد أحدًا منهم!

استقبلتنى البائعة بالصوت الموسيقى الهامس نفسه. وعندما قلت لها عن اسم العطر الفرنسى الوحيد الذى أعرفه أسرعت لتحضره لى.. وفى لمح البصر كانت قد أعدته فى ربطة كأنها «بوكيه» ورد.. ثم كتبت فى ورقة الرقم الذى تطلبه من الفرنكات. وترددت أمام هذا الرقم. وسمعتها وهى تقول بالصوت الهامس نفسه: «أرجوك لا فصال.. ستدفع وسأعطيك مع زجاجة العطر النسائية هذه.. زجاجة عطر هدية من أجلك أنت»!

دفعت الثمن.. وأخذت الزجاجتين.. واستدرت لأنصرف وقد تحول ترددى أمام ارتفاع سعر زجاجة العطر إلى اقتناع وكلمات شاكرة.. وقبل أن أدرك الباب. سمعت صوتها ثانية:

«دقيقة واحدة من فضلك.. يبدو أن الجو حار اليوم..»

وقبل أن أرد عليها كانت قد أغرقت وجهى وملابسى بعطر ينبعث من زجاجة فى يدها. ثم قالت فى وداعة:

«هل أعجبتك هذه الكولونيا»؟

وهززت رأسى موافقًا على الفور.. فعادت تقول:

«إذن.. فإليك زجاجة اخرى من الكولونيا هدية»!

هديتان من أجل شراء زجاجة عطر واحدة؟.. هل هم حريصون على إرضاء المشترى إلى هذا الحد؟.. إن الهدية الحقيقية

التى أحسست أنها لا تقدر بقيمة هى تلك المعاملة البالغة الرقة التى تتعامل بها البائعة معى، ومع غيرى من الذين دخلوا المحل فى الوقت نفسه.. وأسرعت إلى الطريق لأبحث عن الأصدقاء، وأروى لهم ما حدث. واكتشفت بعد أن قطعت الطريق حتى نهايته أننى أصبحت وحيدا.. وأننى لا أعرف إلى أين أذهب بعد ذلك.

ثم أيقنت أننى فعلاً تائه فى مرسيليا!

* * *

اشتريت مجلة وجريدة.. وجلست فى إحدى الحدائق وقد وصلت إلى قرار بأنه قبل أن يحين الموعد الذى ستغادر فيه السفينة الميناء أكون قد أخذت سيارة أجرة إلى هناك، ولا داعى للإحساس بأى قلق.

كانت عيناى متعلقتين بالعنوان الرئيسى فى جريدة «لومانتيه» وكان العنوان عن إحباط مصر محاولة أربع طائرات «فانتوم» إسرائيلية اختراق المجال الجوى عند «القنطرة» و «الاسماعيلية» وإسقاط إحدى هذه الطائرات.. تعالت دقات قلبى بالزهو، وأخذت أعيد قراءة ما تحت العنوان أكثر من مرة. ثم سمعت صوت الذى يجلس إلى جوارى دون أن أكون قد انتبهت إلى وجوده:

«لابد أنك من مصر.. ولابد أنك سعيد لهذا الخبر»!

لم أرد عليه، وبنظرة سريعة تفحصت وجهه الذى تدل ملامحه

على أنه تجاوز الستين. وقد وضع فوق رأسه « البيريه » التقليدى.. وأسند كلتا يديه على العصى المثبتة بين رجليه، وسمعته يقول من جديد :

« هذه الجريدة تحترمها كلنا.. ولعلك تعرف أننا عايشنا هنا فى فرنسا الظروف نفسها التى تعايشونها أنتم الآن.. فى أيام الحق النازيون بنا هزيمة كبيرة، وظنوا بعدها أن فرنسا قد انتهت إلى الأبد.. ثم كانت كلمة « ديجول » الرائعة التى جاءت من ضمير فرنسا « لقد خسرنا معركة.. ولكننا لم نخسر الحرب ».. وأعتقد أن هذه مهمتكم الآن.. وهى مهمة صعبة.. القوة هى المنطق الوحيد.. وعندما تكون قويا فإن الجميع يحترمونك.. حتى عدوك »!

قبل أن أتكلم تكلم هو ثانية :

- هل تعرف أننى عشت فى مصر فترة طويلة.. لقد كنت أعمل مدرسًا فى إحدى مدارس الاسكندرية.. مازلت أذكر اسمها: العباسية.. وكانت السنوات التى عشتها هناك من أسعد سنوات عمرى. أما الآن فأنا عجوز ووقتى كله للقراءة.. أو كما تقولون فى مصر « على المعاش ».. ترى هل تغيرت الإسكندرية كثيرًا.. لقد فات الآن أكثر من ثلاثين سنة منذ تركتها وعدت إلى فرنسا »!

إنشغلت معه بالحديث. وعندما تذكرت أننى يجب أن أعود إلى الميناء لألحق بالسفينة، نظرت إلى الساعة ثم قمت مرة واحدة كالملدوغ، فليس أمامى إلا عشر دقائق فقط. وأسرعت مغادرا

الحديقة وأنا ألوح له بيدى، ثم وقفت فى الطريق على اعتقاد أننى سأتمكن من إيقاف سيارة أجرة لتسرع بى إلى الميناء، ولكن سيارات الأجرة كانت تعبر أمامى واحدة بعد الأخرى دون أن تتوقف احداها مهما أتيت من اشارات، وانتبهت ثانية إلى كلمات الرجل العجوز الذى كان يجاورنى فى كرسى الحديقة وقد جاء ليقف إلى جانبى :

« موقف سيارات الأجرة هناك عند الطرف الجنوبى للحديقة. ولابد أن تذهب إلى هناك » !

لم أعد أدرك ما يحدث. ولكنى أفقت عندما وصلت إلى الرصيف الذى رست عنده « سنيتيا ». فقد كانت الأصوات متداخلة وهى تنادى اسمى فى لهفة. وتنفست الصعداء عندما رأيتهم يعيدون سلم الباخرة بعد أن كانوا قد بدأوا فعلاً فى رفعه إستعدادًا للرحيل !

* * *

ونحن وسط الموج عدت بنظراتى إلى « مرسيليا ».

الظلام يلفها بغلالة لا تعترف بالأضواء المتناثرة هنا وهناك..

يخيل إلى أنى أسمع نغمات « تانجو » هادئة.. واننى أرى - رغم الليل - ذلك التمثال الذهبى يعلو كنيسة « نوتردام دى لاجارد ».. وأنى لم أفارق بعد.. الحلوة مرسيليا !

عائد من الأفق!

١

«نصيحتى لك ألا تذهب إلى لندن هذه الأيام»!.

«لماذا؟!».

«ليس الضباب هو السبب، وليست الأمطار إنها الإضرابات، لقد تركتها منذ أيام وكل شىء فيها فوضى، إضراب لعمال النظافة، إضراب لعمال الشحن، فوضى لا أول لها ولا آخر، أنا أدرس هناك، ولكنى فضلت أن أمضى الإجازة فى هذه الرحلة البحرية، وبعدها سأمضى بقية الإجازة فى اليونان.

كنت مدعوا على الغداء على مائدة كابتن «سينتيا» المتأنق دائما وكأنه ذاهب إلى الكنيسة فى حفل زفافه «بانيوتى جيانولاتوس»، وكان معنا على المائدة نفسها ابنه الذى يدرس فى انجلترا، وصديق له

إنجليزى، والإثنان حرصا على أن تسترسل شعورهما كما تسترسل شعور البنات، ولكن أفكارهما عندما دار بيننا الحواد كانت تسبق هذا العصر!.

قبل الغداء، كانت راودتنى فكرة أن أمرق من السفينة، أهرب منها، أسافر عند أول ميناء، بأية طريقة، إلى باريس أو إلى لندن، وعلى المائدة كان «كونراد» يقول وهو يهز رأسه لتبتعد عن عينه خصلة الشعر المنسدلة وكأنه الساحرة معبودة الشاعر «بايرون»:

«لقد اخترت أن تقوم بهذه الرحلة وعلى هذه السفينة، واختيارك هو قمة حريتك، فلماذا تريد أن تكبل حريتك بالقيود؟!»

قلت فى دهشة: «وهل القيود فى الانطلاق إلى مكان جديد؟!»

عاد يقول: «لا أقصد ذلك.. وإنما أقصد ما قد يشغلك من أجل تنفيذ هذه الفكرة الجديدة.. هل تعرف ماذا يفعل النمر عندما يشاهد أمامه قطيعًا من الغزلان؟.. إنه يصوب عينيه على واحدة منها.. واحدة فقط.. ثم لا يشغل نفسه ببقية القطيع.. ويتتبعها بعد ذلك بكل حواسه، وعندما يجرى القطيع فزعًا، فإنه لا يجرى مثلما يجرى بكل أفراده.. إنه يتتبع الواحدة التى اختارها منذ البداية.. وقد تغيب عن نظره لحظة وتقترب منها واحدة أخرى.. ولكنه لا يلقى لها بالاً حتى ولو كانت فى متناول أنيابه.. يتركها ليطارد التى أختارها منذ البداية.. ويظل يطاردها حتى يفترسها فى

النهاية.. هل فهمت قصدى؟!».

وسألته فى انبهار «ماذا تدرس؟!»

قال وهو يهز رأسه من جديد: «أدرس الرياضيات، أعانى من طلاسمها، ولكن ماذا أفعل.. هذا هو اختيارى منذ البداية»!

تدخل الكابتن «جيانولاتوس» فى الحوار ليسألنى:

«هل عندك أولاد؟».. وعندما هززت رأسى علامة الايجاب، استمر قائلا:

«قد تدهش إذا قلت لك أنه قد مضى الوقت الذى كانت فيه مهمة الأباء هى مواصلة توجيه النصائح لأبنائهم.. هل تعرف لماذا؟.. لأن الأبناء هذه الأيام اختاروا أن يكونوا أبناء الحياة نفسها.. منها يتعلمون، ومن تجاربهم معها يتلقون الدرس وراء الآخر.. مهمة الآباء هذه الأيام تنحصر فى ألا تكون لهم أخطاء.. فتلك العيون المتفتحة ترقبهم فيما يقرب السخرية.. وعند أول خطأ يتحولون إلى فلاسفة.. ويا ويل الأباء من الأخطاء.. ومن فلسفة الأبناء».

قال «الكابتن» ثانية ونحن نستعد لمغادرة المائدة «أنتم مدعوون إلى حجرة القيادة.. لتكونوا أول من يشاهد جزيرة «رودس».. الإيطاليون يفخرون بجزيرة «كابرى».. ولكن جزيرتنا اليونانية «رودس» أجمل بكثير.. وبعد لحظات ستتأكدون بأنفسكم من كلامى هذا.. هيا بنا إلى أعلا السفينة»!

٢

لم تتوقف السفينة عند «رودس» مرت بجوارها، لتبدو الجزيرة من بعيد وكأنها زهرة عملاقة تطفو فوق السطح الأزرق، ولاحظت أن الجزيرة ليس لها ميناء، السفن تتوقف على مسافة قريبة، ثم ينتقل من يريد زيارتها الزوارق إلى هناك، وكل ما نشاهده الآن هو مجموعة من البنايات العالية الزاهية الألوان، وسألنى «الكابتن» ولمعة الزهو فى عينيه :

«ما رأيك ؟ . . أليست أجمل الجزر ؟ !

إبتسمت وأنا أرد عليه : .

«من بعيد تبدو جميلة . . ولكن الحكم من بعيد لا يكفى . . منذ لحظات كنت تتكلم عن أخطاء الآباء . . وكأب لا أستطيع الآن أن أقول إن «رودس» هى أجمل الجزر» !

تعالت ضحكاته ثم قال ويده تخبطنى على كتفى :

«معك حق . . ولكنى أتحمل المسئولية فيما أقوله» !

كان «كونراد» الانجليزى واقفا إلى جانبى، وكان واضحًا أنه يتململ فى وقفته ويود لو يغادر مكانه عند سور السفينة، فسألته وأنا أبتعد عن المكان ليتبعنى حتى نجلس على مقعدين متجاورين :

«شباب هذه الأيام يحب أن يبدو غامضًا . . والاتهامات الموجهة إليه كثيرة . . أهمها تتعلق بمظهره . . وأقلها أهمية عن طريقة ممارسته

لحياته.. وللحب.. ما رأيك؟!»

قربت تقطيبه بين حاجبيه، وقال فى هدوء بالغ وقد عقد يديه فوق صدره:

«هل سمعت عن شيء إسمه «الملل».. لا بد أن تكون قد سمعت عنه. ولعلك قد عانيته.. شباب هذه الأيام.. نحن.. كلنا أبناء ذلك «الملل».. لا تصدق ما قاله الكابتن من أننا أبناء «الحياة» نفسها.. نقرأ التاريخ فنجد حكمته تتلخص فى أنه يعيد نفسه.. ونقرأ قصص الحب الكبيرة.. فنضحك من كل تلك التراجيديات التى تنسج خيوطها.. نحن لا نحب أن نبدو غامضين. نحن - وصدقنى - نتطلع فى شوق جامح إلى ما يمكن أن يكون غامضا.. الميزة الوحيدة للأجيال السابقة أنها كانت تنعم بلذة الاكتشاف.. مرة يكتشفون الكهرباء.. ومرة يكتشفون الذرة.. كانوا أمام الحاجة التى هى أم الاختراع.. ولكن انظر إلينا الآن.. إننا نجد باستمرار ما هو فوق حاجتنا.. حياتنا سهلة إلى أبعد الحدود.. لا نعانى من الحرمان فى أى شيء.. فى الحب، أو فى الطعام.. أو.. أرجوك لا تقاطعنى.. أعرف ما ستقوله.. إن هذا لا ينطبق على كل شباب العالم.. هناك الشباب الذى يعانى من الحاجة ومن الاضطهاد.. ويعانى أكثر من ويلات الحرب.. ولكن هل تعتقد أن هناك انفصالاً بين شباب جيل واحد مهما اختلفت الأماكن والحضارات؟.. بالطبع لا.. عدم حاجتى أنا.. وعذابه هو.. ذلك

هو قمة التناقض.. وهو تناقض لا يعتبر هذا الجيل من الشباب مسئولاً عنه.. إنهم الكبار وأفكارهم البالية عن المصالح وعن النفوذ.. ولو تركوا العالم للشباب.. لطبقوا فيه كل تلك النظرية العلمية البسيطة للغاية.. نظرية «الأواني المستطرقة».. الحياة كلها في مستوى واحد.. لا ارتفاع ولا انخفاض.. لا تخمة ولا تضور.. الحياة قصيرة فليستمتع بها كل من يتنفس بالحياة.. ولكن هل يترك لنا الكبار هذا العالم.. إنهم يضللون أنفسهم عندما يعتقدون انهم يفعلون كل ما يفعلون من أجلنا نحن.. الحقيقة أنهم يفعلون كل شيء من أجل أنفسهم.. أما نحن فامتداد لهم.. كائنات حية يمتلكونها.. هكذا يتصورون.. ولابد أن يتلاشى هذا التصور قبل أن يتلاشوا جميعا.. جميعا»!

٣

نحن نقترب الآن من جزيرة أخرى، ولكنها كبيرة ومشهورة، والسفينة تتجه إلى طرفها الجنوبي، لتقف قريبا من شاطئها، ثم نستقل الزوارق إلى مدينتها التي تعتبر عاصمة امبراطورية «النبيذ» التي تمتد إلى دول كثيرة في أوروبا، وكل رعاياها من الزجاجات الحمراء والبيضاء!

قبرص، أو جزيرة «أفروديت»، والمدينة «ليماسول»، وعلى مرمى البصر بناء عال لكنيسة، وقريبا منه مئذنة جامع!

تقول «أرينا» ابنة «ليماسول» حمراء الشعر: «أنتم تعرفون أن

غالبية سكان قبرص من أصل يونانى، والأقلية من أصل تركى، وحتى وقت قريب كنا نتبع التاج البريطانى ونحن الآن دولة مستقلة و . . . »

كعادتى لا تجاوب مع الكلمات المحفوظة وأترك الجمع لأتجول فى شوارع «ليماسول» ولأضرب بأقدامى فوق جزيرة «قبرص»!

كل المدن التى زرتها من قبل لها طابع خاص، بصمة واحدة لشوارعها، ولبيوتها، ولأهلها، ولكن «ليماسول» تختلف، تكاد تكون بغير شخصية محددة، التراث اليونانى يختلط بالتراث التركى والإثنان يجثم فوقهما الطابع الانجليزى، واللغات متعددة، والملامح متباينة، ولا يكفى أن تقول عن واحد تقابله أنه «قبرصى» وينتهى الأمر، ولكن الظاهرة الملفتة للنظر فعلا هى كون غالبية الذين تراهم من الأهالى من العجائز، نساء ورجال تخطوا الستين، ورسم الزمن على وجوههم أخاديد كأنها موج البحر، وفى عيونهم بريق يختلط فيه الأسى مع الرغبة فى الاستمرار فى الحياة!

وحتى عندما زرنا مصنع النبيذ الكبير، ورأينا جبال «العنب» وهى تتحول إلى جدول صغير من «النبيذ»، فإن أكثرية العاملين فى المصنع من العجائز، ونادرًا ما نرى رجلا أو فتاة فى عنفوان الشباب. . وتحيرنى هذه الظاهرة، واسأل حمراء الشعر «أرينا» عندما ألتقى بها ثانية :

«لماذا تبدو «ليماسول» وكأن قد هجرها الشباب؟!»

لم ترد على سؤالى على الفور، تعلقت نظراتها بشيء بعيد، ثم قالت فى تأن وكأنها تختار الكلمات بحرص :

« هذه مشكلة حقيقية.. ليس السبب الوحيد أن الشباب يهاجر وليس أيضًا فى تلك الحروب الأهلية التى تعانى منها الجزيرة منذ سنوات طويلة.. ولكن السبب كما أعتقد هو أن الجميع هنا يحبون العمل.. أو اذا شئت الدقة.. لابد أن يعملوا لكى يعيشوا.. وعلى العموم « ليماسول » هى إحدى مدن « قبرص » وليست « قبرص » كلها.. وقد يختلف رأيك لو زرت « نيقوسيا ».. وفى الحقيقة أنا من هناك » !.

وأعود أسألها : « وما هى خططك للمستقبل.. هل تفكرين فى الهجرة أيضا ؟ ! »

زمت شفتيها ثم قالت : « ولماذا أهاجر.. أنا طالبة الآن.. وفى الصيف أجيء إلى « ليماسول » لأعمل مرشدة سياحية.. ولكن.. من يعرف.. فربما تجد ظروف بعد تخرجى وساعتها سأعيد التفكير من جديد.. ليس هناك من يكره السفر والترحال » ! !

فعلا.. من يكره السفر والترحال ؟ !

٤

رفقة البحر الأمواج توشك على نهايتها، بعد ساعات نكون فى « بيروت »، وبعد يوم واحد نعود إلى « الاسكندرية »، أحس وأنا

أتطلع إلى القمم الزرقاء، التى تحيط السفينة من كل جانب وكأنى فتحت عينى لتوى بعد إغفاءة قصيرة طافت بى أحلامى فيها عبر بلاد كثيرة، إختلفت الأماكن، واختلفت اللغات، ولكن الإنسان بقى هو الإنسان، تعلمه الحياة أنه لا مفر من مواصلة الليل بالنهار، ويدفع به الملل إلى أن يتطلع إلى المكان الآخر الذى يعيش فيه إنسان غيره، تماما كأوراق الكوتشينه، ورقة مكان ورقة، وكأنى بالذى أتى فى حياته كل ما يستحق عليه نعيم الفردوس، وهناء الجنة، يصرخ بعد أيام فيها، لقد ضقت بالنعيم وضقت بالجنة، أين من يأخذنى إلى سعير النار، أتوق للوهج، للهيب، للألسنة الحارقة ولصرخات العذاب !

وكأنى بالأمواج تتعانق وتفترق فى ضحكات لا نهاية لها من حال ذلك الإنسان الذى تحمله لتسافر به، ثم تحمله لتعود به، وهو فى أول الأمر يفور بالحماس، ثم هو فى نهاية الأمر خائر القوى مستسلم للنعاس، فى أمل أن تراوده أحلام جديدة، فى أن يرحل إلى مكان جديد !

فى «سان بيكو» على شاطئ «الأوزاعية» فى بيروت كان الصديق «عَبد» بكسر الباء - كأنما يقرأ أفكارى، كان يقول :

«وماذا تظنون أن الإنسان يريد من الحياة؟.. إن مشاكلها لا تنتهى.. وليس أمامه إلا أن يختلس لحظات من «البسط».. من المتعة.. لأنه بعد هذه اللحظات عليه أن يصارع صراع الجبابرة حتى

يفوز بلحظة «البسط» ثانية!

ثم يقول وهو يرمى إلى حلقه بجرعة من الزبيب الزحلاوى: «فى يوم كنت مفلسًا.. ثم وجدت أمامى رجلا أمريكيا يطلب منى أن أدله على محل يبيع الألماظ.. وأرشدته إلى المحل.. وفوجئت بصاحب المحل يقول لى إنه لا يستطيع أن يبيع بيعة بمليون ليرة ويعطينى أكثر من ١٢ ألف ليرة.. كنت لا أفهم ماذا يعنى.. ولكنى وجدت فى يدى ١٢ ألف ليرة مرة واحدة .. وكالجوعان الذى هبطت أمامه مائدة من السماء عامرة بكل ما طاب ولذ.. رحت أنفق ذلك المال الطائل بلا حساب.. فتيات.. وموائد خضراء.. أحيانا أقول إن ذكريات اللحظات الممتعة أحسن بكثير من أحلام اللحظات التى نتمنى أن تجىء.. ثم لا تجىء»!

٥

هل سبقت خيوط الفجر؟!.. كنت أعرف أننا سنصل إلى الإسكندرية بعد ساعتين، ولكنى وقفت عند السور العالى وكأنى الملاح التائه المتشوق إلى الأرض، وإلى المرفأ، أو كأننى تركت بلادى منذ سنوات لأسابيع قليلة، وهأنذا تدمدم فى مشاعرى كل أحاسيس الحنين والعودة!.

تقترب السفينة أكثر.. فى الأفق الشاحب تبدو ظلال لا أتبينها تمامًا ولكنى كنت كمن يراها أمامه على بعد خطوتين، وتلك المئذنة

العالية أعرفها جيدًا، إنها مئذنة المرسى أبي العباس، إنها ليست الاسكندرية فقط التي تنتظرنا في ذلك الشريط الشاحب، إنها «مصر» كلها، السفينة لم تعد بيتنا، لم تعد الملجأ في ميناء بعد ميناء، بيتنا أمامنا، هناك، بل هنا، أمامنا على مرمى القلب والبصر!

البوغاز والحاجز الصخرى الذى كان يحلو لنا ونحن صغار أن نطلق عليه «الرملة البيضاء» ونتسابق إليه بالسباحة أو بالزوارق» وهذه اللنشات المسرعة إلى السفينة تنبعث منها الصفارات المرحبة وكأنها ابن البلد الذى تمر عليه، فيرتفع نداؤه «إتفضل»!.

السفينة الآن مشدودة بحبلين، واحد عند مقدمها، والآخر عند ذيلها، وقد استسلمت لهما بلا حول وبلا قوة ليجذباها - بالعرض - إلى رصيف الميناء.. لتستقر بجواره، وتهدأ!.

الصيحات تتجاوب بين الواقفين عند سور السفينة وبين الذين تجمعوا في شرفات الميناء في انتظار العائدين، ثم تخفت الصيحات عندما يتلاحم الجميع بعد أن لم تفصل بينهم مياه البحر. وأقف على الرصيف لأتطلع إليه من جديد..

الرحابة، والامتداد اللانهائى، العناق مع السماء.. والأفق!! وهدير الموج..

وكأن شيئًا لم يكن!!

بالطائرة
إلى غابات العصور الوسطى

عندما عزف لى شوبان!

بعد خمسة أيام فى «وارسو» كنت قد تأقلمت على الجو هناك. الضوء الباهر للنهار يبدأ من الثالثة صباحًا ويمتد حتى الثامنة مساءً، والمطر يحتمل أن يسقط فى أى لحظة، والجو حار خانق، ثم بارد عاصف.. لذلك يجب أن تكون بالقميص والبنطلون وأن يكون فى حقيبتك - فى الوقت نفسه - معطف المطر!

وفى ذلك الصباح - وكنا يوم الأحد - دق التليفون فى حجرتى رقم «٢٣٨» فى فندق «يوربيسكى» - أى الأوروبى - وكانت الساعة لم تتجاوز التاسعة ولكن الشمس كانت تفرش كل أركان الحجرة.

- هالو. مستر ريسك.. جينسكا تتكلم..

* هالو.. أي خدمة؟!

- نحن فى انتظارك فى مدخل الأوتيل.. استعد.. سنذهب جميعًا إلى القرية التى ولد فيها «شوبان».. سيكون معك صحفيون من روسيا وبلغاريا والجزائر.. ورجال أعمال أمريكان أيضًا.. ما رأيك؟!

* عظيم.. بعد خمس دقائق سأكون معكم!

أعدت النظر إلى جهازى قياس درجة الحرارة داخل الحجرة وخارج الشباك، وتأكدت أن الجو سيكون حارًا وارتديت قميصًا وبنطلونًا وأسرعت تاركًا حجرتى إلى بهو الفندق وفى صدرى سعادة غامرة لهذه الرحلة غير المنتظرة، خاصة يوم الأحد، وإلى أين؟.. إلى ريف بولندة، وإلى القرية التى ولد فيها شوبان وعاش فيها لفترة قبل أن يغادر بولندة ويعيش فى باريس بقية حياته!

* * *

فى السيارة الكبيرة حدث التعارف سريعًا، وخاصة بيننا نحن الأربعة الذين نجلس فى الخلف.

فتاة أمريكية من نيويورك - بياتريس - وإلى جوارها صحفى من موسكو - بوريس راشكوف - ثم صحفى بلغارى لا يتكلم إلا الفرنسية.. ثم أنا.. من مصر!

وفى المقاعد الأخرى.. رجل من إيطاليا، وعجوزان - رجل وزوجته - من أمريكا وصحفى جزائرى - صبحى بلقاسم - وفتاة

من الأرجنتين. ثم المرشدة السياحية التى ظلت طوال الوقت تكرر كل شيء بالبولندية.. ثم بالإنجليزية.. ثم بالفرنسية.. ثم تعيد حصرنا وكأننا مجموعة من الدجاج فى قفص، ولكن.. أى مجموعة ؟!.. خليط من مشرق الأرض ومغربها، وإن تعذر التفاهم باللغات فاللغة العالمية - الإشارة - هى السبيل الوحيد.. وياحبذا لو استعانت الإشارة بنظرات العيون!

السيارة تخترق الشوارع الرئيسية لوارسو.. وأغلب المحال مغلقة، وها هو القصر الكبير للثقافة - وهو هدية من الإتحاد السوفييتى - يبدو شامخًا رغم ابتعادنا عنه، ورغم أننا كنا نزحف إلى الطريق الزراعى المتجه إلى «جلازوفا فولا».. فى قرية شوبان!

إبتسمت بينى وبين نفسى عندما لمحت فلاحة بولندية ترتدى الملابس الزاهية الألوان - أحمر مسخسخ! - تمامًا كالفلاحة عندنا، تجلس القرفصاء مع أولادها وزوجها فى عربة خشبية صغيرة يجرها حصان!

الحقول مترامية الأطراف، وهادئة، ولكنها تبدو مفتقرة للإنسان أو لعلها فى غنى عنه.. وكأنها حقولنا الخضراء ظهيرة يوم الجمعة عندما يغيب عنها الرجال.. للاستحمام ثم الصلاة!

الصحفى البلغارى الذى يجلس إلى جوارى - وهو يشبه إلى حد كبير صديقنا الكاتب المعروف محمد عوده - يمسك كتابًا فى يده ولكنه لا يقرأ.. عيناه بين الصحفى الرومى والفتاة الأمريكية إلى

يمينه، ثم ناحيتي وناحية الشباك إلى يساره وأحسست أنه فى حاجة إلى من يتكلم معه، وعلى الفور رتبت ذهنى على استخدام كل ما أعرفه من اللغة الفرنسية.. وقد كان.. فتح الله على بشكل كنت لا أتوقعه.. بل أنى تدفقت أسأله بالفرنسية وأحاوره وكأنى خريج «سان مارك». وقد عرفت بعد ذلك إننى فعلت ذلك بما يشبه المعجزة، وعلى طريقة «العدو أمامكم والبحر خلفكم..».. فانفكت عقدة الخوف بالفرنساوى!

كيف.. لا أعرف!

سألته عن آخر أخبار صوفيا، وسألنى عن آخر أخبار القاهرة، ثم انزلق الحديث إلى الموقف الآن بعد العدوان، ثم قال إنه يريد أن يسألنى سؤالا ولكن قبل ذلك يريد أن يوضح شيئًا، وهو أنهم فى بلغاريا، يؤيدون العرب دون أى حدود.. ويستنكرون أطماع اسرائيل العدوانية و..

وقلت: والسؤال؟!

وقبل أن يسأل، تمنيت على الله أن يكون السؤال سهلاً أقصد أن تكون لغته سهلة أستطيع أن أفهمها.. واستجاب الله بأن سألنى:

- ما هو الحل؟!

وقلت على الفور:

* طريق واحد لا طريق غيره.. الحرب.. وهى بالنسبة لنا

حرب تحرير.. سنخوضها جميعًا وفى كل مكان.. حتى يتحقق النصر النهائى.

وقال الصحفى البلغارى فى حماس:

- نعم.. هذا هو الحل.. وأنا معجب كثيرا بالأعمال الفدائية لـ «فتح».. لست أنا فقط.. بل كل شعب بلغاريا!

طوال حديثنا، كنا لا نلحظ أعظم شىء يحدث فى الكرسى الخلفى.. التقارب الحقيق.. أو التعايش السلمى بين أمريكا والاتحاد السوفييتى..

فالصحفى القادم من موسكو - بوريس - انطلق فى حديث طويل مع الفتاة الأمريكية - بياتريس - ولكنه لم يكن حديثًا سياسيًّا وإنما كان حديثًا مليئًا بالعاطفة .. والغزل!

بوريس يقول: وهل أنت وحدك؟

وبياتريس تقول: نعم.. وهوايتى التجوال فى أنحاء العالم!

- مخطوبة؟

- لا.. ليس بعد!

- عظيم.. نستطيع أن نمضى يومًا سعيدًا.

- أرجو ذلك.. ولكنى مندهشة أنك تتحدث الانجليزية بطلاقة..

وضحك «بوريس» طويلا قبل أن يرد:

- لسببين.. الأول أنى أكتب بالانجليزية.. والثانى إننى أعزب

وأهوى التجوال مثلك.

بياتريس ليست جميلة جدًا - أغلب البولنديات أجمل منها - ولكنها ترتدى الميني جيب، وجلستها المرتخية تجعلها تبدو وكأنها جالسة بالمايوه.. وبوريس يبدو كنجوم السينما، متأنق، حركاته محسوبة. وقد اكتشفت بعد ذلك أنه «دون جوان» خطير.. لا يحب فى الدنيا غير شيئين: الكتابة عن البترول.. ومطارحة الغرام!

مال الصحفى البلغارى ناحيتى ليقول:

- أمريكية وروسى.. قصة عظيمة.. أليست كذلك؟

وقلت مبتسمًا:

- إنهما لا يدعواننا إلى مائدة المفاوضات!

وضحك الصحفى البلغارى طويلا، ومال ناحية «بوريس» يحدثه بالروسية، وانفجر الإثنان ضاحكين، وانحنى بوريس ناحيتى ليقول لى فى همس:

- إنه مجرد استطلاع.. وإذا احببت فسأترك لك مكانى لتجلس إلى جوارها!

* * *

بعد ساعة كاملة وصلنا إلى «جلازوفا فولا».. وكان الطريق ثم الميدان المواجه لبيت شوبان. والحديقة الواسعة المحيطة به مزدحمًا بالسيارات الكبيرة والصغيرة، وإلى اليمين مطعم صغير مزدحم بالناس وإلى اليسار مكتب بريد ومحل للمرطبات.. وقبل أن نترك السيارة

أعادت المرشدة السياحية المرافقة لنا حصرنا واحدًا واحدًا.. ثم قالت في رقة شديدة:

- أمامكم جولة حرة حتى الثانية عشرة.. وبعدها سيحين دور مجموعتنا لزيارة البيت.. وفي الواحدة تمامًا سيبدأ عزف مقطوعات من موسيقى «شوبان».. ونرجو أن نكون جميعًا في الحديقة!

خرج جميع الدجاج من القفص.. ولكننا نحن الأربعة - أصحاب الكرسي الخلفي - بقينا معًا.. وبدون أخذ رأينا قرر «بوريس» أن يتولى قيادة مجموعتنا وتنظيم الوقت.. أولا.. جولة في الحديقة.. ثم تناول الأفطار والمرطبات.. ثم بقية البرنامج المعروف..

ووافقنا، ومال هو ناحية «بياتريس» ليقول في رقة:

- هل تحبين أن أحمل حقيبتك؟

- لا أشكرك.. إنها حقيبة يدي!

وفعلا.. كانت الحقيبة صغيرة جدًا وليست في حاجة إلى من يحملها عنها، ولكن بوريس ظل طول الوقت يعرض عليها حمل الحقيبة. وهي تعتذر.. وكأنها لعبة بلا نهاية!

حمل كل منا بنفسه ما اختاره للإفطار وجلسنا حول مائدة واحدة.. والشيء الوحيد المشترك بيننا هو عصير الطماطم، وهي غالية الثمن جدًّا هنا في بولندة - الكيلو بحوالي ٦٠ زلوتي.. أي ما يقرب من جنيه مصري ولم يصدقوني عندما قلت لهم إن ثمن كيلو الطماطم في مصر لا يتعدى «زلوتي» واحدًا!

عاد الصحفى البلغارى إلى محاولته للحديث معى بالفرنسية.. ولكنى كنت قد استنفدت كل ما عندى خاصة وأن الغالبية الآن - ثلاثة ضد واحد - للحديث بالانجليزية.. وقال « بوريس » موجهًا حديثه لبياتريس :

- ستكون مفاجأة جميلة لو تركتنا السيارة وعادت إلى وارسو!

وابتسمت لترد عليه :

- أوه.. ولكن حقيبتى الأخرى فى السيارة.

- هل هذه كل المشكلة ؟

وتدخلت أنا قائلًا :

- بالنسبة لها ليست مشكلة.. إنها غنية بالطبع وتستطيع أن تدفع ثمن سيارة الأجرة حتى وارسو..

وقالت بياتريس فى انفعال :

- لست غنية كما تعتقدون.. لقد ادخرت ثمن هذه الرحلة منذ أكثر من خمس سنوات وعندما سأعود إلى نيويورك سأبدأ الادخار من جديد لأقوم برحلة جديدة.

- إلى اين ؟

- حتى الآن لا أعرف.. ولكنى أتمنى زيارة اليابان..

وقال بوريس على الفور :

- سأكون هناك.

شىء يقرب من القداسة يغلب مشاعرنا ونحن ندخل بيت

«شوبان».. كل شيء لامع، نظيف، وكأنه كان يعيش هنا بالأمس فقط لا منذ قرن ونصف.

موسيقاه لم تتجاوب فى أصداء البيت والحديقة بعد.. ولكن الصمت يكاد يتحول إلى تموجات تلف كل شيء بغلالة من السمو وأصداء الخلود.

هذه حجرة «شوبان» الخاصة.. هنا كان ميلاده... وفى هذا المهد كانت أقدامه تضرب الهواء قبل أن تضرب أطراف أصابعه مفاتيح ذلك البيانو اللامع الذى يتصدر الحجرة.. كل شيء باق كما هو. النقوش الجميلة على السقف غير العالى.. اللوحات المعلقة على الحائط.. المقاعد.. كل شيء.. كل شيء.

وهذه حجرة أم «شوبان».. ثم هذه هى حجرة أبيه.. هل كانا يدركان عند مولده أنه سيصبح ذلك الفنان العظيم؟.. هل اعدا له البيانو قبل مولده.. وما سر تلك العبقرية التى تفجرت فى وجدانه وهو صبى صغير لا يتعدى السادسة فقط من عمره؟.. نظرة خاطفة من الشباك إلى الطبيعة المحيطة بالبيت.. نفس ما كان يراه «شوبان» منذ صباه.. الهدوء الذى يكاد يكون لسانًا متحركًا للصمت؟

ما سر تلك العبقرية الخالدة؟

كيف طوت هذه الجدران البسيطة روح ذلك الصبى «فردريك» ثم أطلقتها لتملأ العالم بكل ما خلقه من أنغام؟

لا إجابة الآن.. وربما نتلمس الإجابة الساعة الواحدة عندما تنطلق موسيقاه.. لتغمرنا جميعا ولو بلمحة من ملامح الخلود.

الجميع فى الحديقة.. تسابق البعض إلى المقاعد المتناثرة تحت الأشجار، وبقى الكثيرون فى الممرات المحيطة بالبيت.. ثم..

ثم.. بدأت موسيقى شوبان.

الأنغام تنبعث من كل مكان.. من بين فروع الأشجار.. بل من قممها العالية، من منابت الزهور.. من مياه الجدول الصغير الذى تتلون قطراته بالخضرة وتهتز فى صوفية مع انبعاثة اللحن.

لحظات يصغر فيها العالم كله ويصغر.. وتتلاشى الجنسيات.. ولا يبقى غير إنسان.. وفرع أخضر ونغم يتماوج إلى السماء.

كأنه بالداخل الآن شوبان.. كأنه يعزف لى وحدى.. كأنه يحكى لى حكاية طال به الشوق ليحكيها لى.

الدقائق تمر سريعا دون أن أشعر بها.. أحس كأنى خلعت حذائى وارتكزت على ركبتى فى معبد بلا جدران.

وتنتهى ألحان شوبان.. وأفيق ولكن لا أشعر برغبة فى أن أترك هذا المكان.. وكيف أتركه.. كيف؟

كانت نبرات «بوريس» قد فقدت كثيرًا من جرأتها ولعله حاول أن يقول شيئًا منغمًا:

- تعالوا لنشرب من البئر التى كان يشرب منها شوبان..

وانطلقنا جميعًا ناحية البئر، تعاونًا على إنزال الدلو إلى الأعماق

ليعود إلينا بمياه لها مذاق الشهد.

سرنا نحن الأربعة وسط الحديقة دون أن نتجه ناحية السيارة التى ستعود بنا إلى وارسو. إعترض بوريس:

- لا .. ليس الآن.. ليس قبل أن نتجول فى الحقول المحيطة بالبيت.. لابد أن نعيش فى كل شبر فى «جلازوفا فولا».. ما رأيكم؟

ولم يعترض أحد.. سار موكبنا الصغير وسط أعواد القمح.. نتبادل النظرات ولا نتكلم.. نحلم ونحن نسير على الأقدام..

ولعل كل واحد منا كان يغلبه الخيال بأن يظهر فجأة.. قادمًا من بعيد بعوده النحيل وشعره المتماوج، وعلى شفتيه الابتسامة الغامضة والنظرة العميقة.. الحزينة.

ولكننا لم نر شوبان..

دعانا إلى بيته.. ورحبت بنا موسيقاه..

وما أروع ما رحبت بنا موسيقاه!

الرقص فى مضجع هتلر!

الشارع، والقصة.. الإثنان وحدهما.. خير ما يعطيك ملامح شعب!

ومن شارع لشارع كنت لا أبحث عن قصة اكتبها أنا، ولكن كنت ابحث عن قصة كتبها من عاش عمره فى هذه الشوارع!

اللافتات تشير إلى الكبار، تسرد لك أسماء، تغرقك فى طوفان الشهرة وحدها، ولكنها فى النهاية تبقيك بعيدًا عن الأزقة، عن النبض الحقيق عن الوقفة العارية تحت شعاع الشمس.. عن الليل الذى زحف ليبزغ هذا النهار، عن اليوم بالتاريخ الميلادى أو بأى تاريخ!

لا أريد لافتات. وإنما أريد أزقة.

المشاهير فى الكتب، فقولوا لى أين الشباب ؟ !

متعصب ؟.. ربما.. وإنما أريد أن ألتق - كزقاق - بزقاق. وفى هذا اللقاء وحده ستكتمل الصورة التى لم أشهد منها إلا الإطار !

قالوا، فى فهم : إنهم مثلك يقولون الكلام نفسه، وها نحن نبعد عنك اللافتات ونزيح الاطار.. تفضـل.. إلتـق بهـم.. إقـرأ قصصهم.. فهم مثلك ولدوا مع صفارة إنذار. إنكمشوا تحت أزيز طائرة ودوى قنبلة، وعندما أمسكوا القلم تحول فى أيديهم إلى بندقية !

اندريتش بريخت. فى الرابعة والثلاثين. كتب كثيرًا ولكن أحدا لم يلتفت إليه.. وفكر قليلاً ووجد أن الحل هو أن يعمل بالصحافة !

وانبهر الجميع بالزقاق عندما نشر قصة « الرقص فى مضجع هتلر » وأقاموا فى الزقاق دار عرض. أقصد حولوا القصة القصيرة إلى فيلم سينمائى، ولكن القصة - كأدب - كانت أروع !

.. قرب حدود بولندة مع ألمانيا، توجد مقاطعة اسمها « مازورى » هذه المقاطعة مشهورة الآن بأنها مكان يقصده السياح، يـرقصون ويستحمون فى البحيرة الصناعية، ومن بين هؤلاء السياح رجـل وقـور ولكنه مرح.. لا مانع عنده أن يرقص، وأن يتبادل الانخاب، لـذلك فقد ظل منذ مقدمه من المانيا موضع إعجاب وهمس فتاتين بـولنديتين لا تتعديان الثامنة عشرة :

ياه.. لقامته المديدة.

ياه.. للشعيرات البيضاء فى فوديه..

ساطير من السعادة لو دعاني إلى الرقص!

أما هو، فقد شحب وجهه وزاغت عيناه عندما جال بهما فى أنحاء المكان.. وتذكر!

لقد كان هنا منذ عشرين عامًا، كان أحد الضباط المرافقين لزعيم ذلك الوقت «هتلر»!.

وفى هذا المكان نفسه أقاموا لهتلر ورفاقه بيتًا جميلاً يمضون فيه الأوقات السعيدة، ويتلقون منه الأوامر بإبادة وارسو وقتل المئات من البولنديين:

هنا كان ينام هتلر، وهنا يرقص الجميع الآن!

وهاتان الفتاتان اللتان ترمقانه بعيون الإعجاب تخفى عنهما حقيقته.. قد يكون هو الذى نفذ أمر الزعيم بقتل أم إحداهما.. ولكنهما لا تدريان.. لا تدريان!

الوقت يمر، والفتاتان تتهامسان.. لماذا لا يدعو واحدة منا للرقص معه؟ لماذا خبت ابتسامته مرة وحدة؟

والرجل ينظر إليهما بعيون مشربة بالأسى.. ولا يتكلم.. ولا يغادر مكانه ليرقص!

وقصة أخرى «لأندريتش بريخت» عنوانها «يوم إجازة».. وفيها أيضًا يلتقى جيلان.. الجيل الذى يتذكر كل شىء.. والجيل الذى نسى، أو لا يعرف شيئًا!

جيل الكبار الذى يعرف أين كانت معسكرات الأسرى. وأين

كانت أفران الإبادة. فيراها فى كل مكان يذهب إليه.. لأنها كانت فى كل مكان!

والجيل الجديد.. الصغار.. عصافير مزقزقة عيونها على الحاضر وعلى الغد. لماذا يفعل الكبار؟.. هل يتركونهم فى لهوهم البرىء دون أن يشدوهم إلى أوتاد الماضى؟.. سؤال محير.. ولكنه لا يظل بدون إجابة فأبناء اليوم قد ينجرفون فى تيار الحياة الجديدة، ولكن من الذى قال إنهم بلا آباء؟.. من قال إنهم لا يتوقفون لالتقاط الانفاس، ومعها يلتقطون الذكرى، يتطعمون بمصل يقيهم من جرثومة قد تخترق جسد حياتهم.. بنذير حرب!.. السلام.. نعم.. ولكن يجب أن يعرفوا من الذى دفع الثمن!

وفى الإجازة.. وعلى بعد خطوات من أقدام الصغار.. يمرح الكبار وفى أيديهم المصل، وعلى ألسنتهم كلمات للصغار. يجب أن تتذكروا.

امرحوا.. وارقصوا.. واضحكوا..

ولكن تذكروا.. تذكروا!!

* * *

مارك نوفاكوفسكى، فى الثلاثين أديب وصحفى هو الآخر.. ولكنه موضه هجوم كثير من النقاد.. لماذا؟.. لأنه إنسان غريب ترك كل النماذج التى تعارف الجميع على الكتابة عنها، ليكتب عن

نماذج يحبها فى شغف يفوق حبه للفتيات..

نماذج الرجال .والنساء الذين لا يصلحون لأى شيء..

البوهيميون.. ولكنهم ليسوا فنانين!

الواحد منهم قد يعمل اليوم نجارًا، وغدا يعمل ساقيًا فى مقهى.. وبعد غد يكون لصًا! والواحدة منهن قد تكون اليوم زوجة، وغدًا عشيقة، وبعد غد زعيمة عصابة!

نماذج موجودة فى المجتمع ولكن على هامشه يتطور المجتمع ويتغير أسلوبه السياسى ولكنهم يبقون كما هم.. يتنقلون من مكان إلى مكان، يفعلون أى شيء أو لا يفعلون أى شيء.. قد تلاحقهم اللعنات، ولكن حياتهم مليئة باللمحات الإنسانية. وبقصص الحب والتضحية!

وقد نذر «نوفاكوفسكى» أدبه كله للكتابة على هذه النماذج ملقيا وراء ظهره بلعنات النقاد.. مستقبلًا فى زقاقه هؤلاء الذين يعيشون الحياة بكل قطرة فيها.

قانونهم.. لا شأن لك بى.. ما دمت أنا لا شأن لى بك.. ولكن اعذرنى إذا أخذت ما فى جيبك!

إدوارد استاخورا، فى الثانية والثلاثين، ولد فى فرنسا من أب يعمل فى المناجم، وعندما عاد إلى وطنه الأصلى بولندة كان يحمل بين جوانحه ملامح أدب جديد، غريب..

أبطال كل قصصه القصيرة من هؤلاء الذين يعانون من الملل،

والوحدة.. هؤلاء الذين يكرهون الرتابة ودقات الساعة.

صغار متدفقون بالحيوية. يشعرون بأن الذى يقدرون عليه يفوق بكثير ما هو ممكن لهم أن يفعلوه.. ينظر الواحد منهم إلى عقارب الساعة للحظة خاطفة، ثم يتقدم منها فى بساطة شديدة لينتزع عقاربها، ثم يرفعها من مكانها ليلقيها على الأرض.. ويطأها بأقدامه.. وينطلق إلى حال سبيله!

مغامرون يحاربون الملل والوحدة بالمخاطر، الماضى عندهم هو ما كان منذ ساعة واحدة فقط. والمستقبل هو اللحظة التالية!

النقاد أيضًا ساخطون على «استاخورا» ويقولون إنه متأثر بجون شتاينيك.. ولكنه هو الآخر مصر على اتجاهه فى الكتابة، فالفن عنده وجهة نظر.. وهذه هى وجهة نظره!

وإذا كان النقاد يطالبونه بأن يختار نماذج أخرى، فهم بمطلبهم هذا يؤكدون وجود هذه النماذج.. الوحيدة.. المحبة للمغامرة.. الباحثة عن طريق - غير تقليدى - تلتق فيه بالمجتمع.

* * *

يانوتس كراسينسكى فى الثالثة والثلاثين بدأ بالكتابات السياسية وانتهى بالكتابة للراديو والتليفزيون، يقولون عنه إن قصصه بولندية دمًا ولحمًا، وهو الشىء النادر الذى لو اختص به أديب لخرج من نطاق المحلية إلى العالمية دون أن يتعمد ذلك!

غالبية قصصه يحولها بنفسه إلى تمثيليات تليفزيونية. وأشهر هذه القصص عنوانها: بالبولندية «كارت».. وقد اندهشت عندما عرفت أن معناها بالعربية قريب جدًّا منها.. «الكاريته»!

والاختلاف الوحيد أن العربة التي كان يقصدها كان يجرها رجال بدلاً من الجياد.. والرجال كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا أسرى عند النازى فى الحرب العالمية الأخيرة!

الخط الرئيسى فى القصة يجيب على السؤال:

ماذا يفعل الرجال عندما يعاملون كالحمير؟

أما التفاصيل فتعطينا نماذج مختلفة من الرجال تناوبوا بأوامر الجنود الألمان جر العربة وفى كل مرة تظهر شخصية الرجل الذى يجر.

المستسلم الذى يجرها لكى ينجو من المشاكل!

المنافق الذى يجرها - كالرهوان - طامعًا فى إعفائه من المرة التالية.. ولكن النتيجة تكون عكس ما يتوقع.. فالجنود الألمان يعجبون بطريقته الفذة فى جر العربة، ويصرون على أن يتولى هو هذه المهمة أغلب الوقت!!

الضعيف - النفس والبنية - غير القادر على الاحتجاج، يجر العربة بصعوبة، ويتلقى الضربات فى صمت، وعندما يغالب نفسه ليسير والعربة محملة بالجنود وراءه.. يسقط أكثر من مرة.. حتى

ينتهى به الأمر إلى أن يلقوا به إلى جانب الطريق!

الشجاع الذى يصرخ فى وجوه الجنود الألمان بأنه سيجر العربة لأن هذه هى أوامرهم.. ولكنه يلعنهم سرًا وعلانية، ويقول دون خوف إنه لو التقى بحفرة فسيجر العربة إليها ليموت هو قبل أن يموت من فى العربة!!

* * *

ثم التقى بزقاق فيه إصلاحات ليتحول إلى شارع عليه لافتة كبيرة!

كاتب وشاعر لم يولد بعد الحرب ولكنه ولد قبلها بسنوات قليلة فانطبعت بكل أحداثها المروعة فى خبايا نفسه.. وروحه.

ستانسيلاف جروشوفياك.. وأشعاره.. وقصصه ورواياته ترجمت إلى أكثر من لغة، والطابع المميز له هو الكتابة العلمية بمعنى استخدام مصطلحات الكيمياء وتطويعها لأحداث درامية نابعة من طبيعة العنصر الكيميائى الذى يتحدث مع عنصر آخر بسهولة.. أو يرفض الاتحاد!

وقد قرأت قصته «تريسموس» أكثر من مرة.. ولكنى لم أفهمها.. فحتى العنوان نفسه اسم مادة علمية، أو ظاهرة تحدث عندما يتحول الإنسان إلى جسد ميت.. وهو فى القصة - على قدر ما فهمت - يتناول بالتحليل ما يحدث لجسد أحد النازيين كان

مشهورًا فى حياته بقسوته. وتلذذه بتعذيب الآخرين حتى الموت.

* * *

الشارع والقصة.. الإثنان وحدهما.. خير ما يعطيك ملامح شعب.

معذرة.. لا أقصد الشارع.. وإنما الأزقة!

حياة خاصة.. بدون مذاهب!

برغبتى الحرة، وبارادتى.. تعمدت أن أتوه فى ذلك الصباح! أسير كيفما اتفق، أركب اى أتوبيس، أنزل فى أى محطة.. غير مكترث بما قد يحدث لى أو بصعوبة أن أتفاهم مع أحد!

ولكن.. رغم إرادتى الحرة هذه، وجدتنى - ربما بالغريزة - أسير فى الاتجاه الذى يسير فيه زحام الناس.. أتتبع خطاهم، وأفعل مثلما يفعلون، وأترك الشارع الذى لا ينعطفون إليه!

ولدهشتى، اكتشفت انهم جميعًا - وكان اليوم إجازة - يقصدون مكانًا واحدًا كأن هناك اتفاقًا للذهاب إليه!

ميدان واسع كبير رأيته من بعد وكأنه مغطى برءوس الناس، وأخذنى الحماس وقد ثار الفضول فى نفسى. ماذا يحدث هناك؟..

هل هو اجتماع سياسى ؟.. أم أنه مجرد سوق كبير ؟!.. ولماذا ترتفع أصواتهم بهذا الشكل ؟!

اقتربت من الميدان ورأيت الآلاف يقفون فى طوابير، يحتمون من الشمس تحت مظلات أعدت خصيصًا، وأنظار الجميع متجهة ناحية شرفة عالية، وعبثا حاولت أن أسأل أحدًا عن الحكاية، الكل مستغرق تمامًا وغائب عن كل ما حوله.. ولم تمر لحظات طويلة حتى تعالى نشيد جماعي يردده الآلاف فى وقت واحد.. ووصل حب الاستطلاع بى إلى درجة تفوق الجنون.. لابد أن أعرف.. ظللت أدور بعينى فى كل اتجاه أبحث عن شخص يبدو عليه أنه متفرج مثلى.. ووجدته فى النهاية.. كان يقف مستندًا على حائط ولا تتحرك شفتاه مع النشيد.. سألته وبدلاً من أن يجيبنى سألنى : من أين ؟.. وعندما عرف. قال ببساطة شديدة : إنه احتفال دينى مثل رمضان عندكم !

رمضان ؟!.. واحتفال دينى يضم الآلاف.. هنا.. فى بولنده ؟!

كنت مستغرقًا فى علامات الاستفهام، عندما لكزنى الرجل لأركع بركبتى على الأرض مثلما يفعل الجميع، وركعت سريعًا دون أن أفهم لماذا ؟.. وعندما وقفت ثانية عاد الرجل يقول : إنه «كوريس كريستى»، وهو من الأعياد الهامة عند الكاثوليك.. وقاطعته قائلاً : ولكنى كنت أظن..

وضحك قبل أن أتم كلامى ليقول : كنت تظن أن الاهتمام

بالمسائل الدينية قد تلاشى هنا!

قلت: ربما.. ولكن يبدو أن الناس هنا متدينون إلى أبعد الحدود.

وضحك وهو يقول: هل تظن ذلك؟.. انظر جيدًا إلى الجموع وأنت تعرف!

وقبل أن أدرك مغزى كلامه، تركنى وانصرف، ووقفت وحدى من جديد أتطلع إلى الجموع الحاشدة المترنمة بالصلوات!

بدأت أتبين ملامح غالبية المتجمعين فى الميدان الكبير الذى تطل عليه الكنيسة.. إنهم جميعا من كبار السن، أو من الأطفال الذين لا يتعدون العاشرة، وعبثًا حاولت أن أجد شابًا أو حتى فتاة.. لا يوجد إلا العواجيز.. والأطفال.

وانسحبت من الميدان.. لأتوه بإرادتى ثانية!

* * *

الناس هنا فى الشوارع لا يسيرون فى خطوات عادية مثلما يفعل الناس عندنا.. إنهم حتى لا يسرعون، وإنما يجرون..

الكل يجرى.. الفتاة لتلحق الأتوبيس، والسيدة لتعبر الشارع قبل أن تتحول إشارة المرور.. جرى.. جرى.. لذلك نادرًا ما تجد واحدة ممتلئة الجسم - فالكل رشيقات بالمينى جيب وبالميكروجيب.. وإذا التقت واحدة بشخص تعرفه فإنها تتوقف لثانية واحدة تعطيه

فيها يدها ليطبع قبلة عليها ثم تستدير مبتعدة قبل أن تتبادل معه جملة مفيدة !

سألت «واندا» حمراء الشعر :

- لماذا تجرون هكذا ؟ ! كل شيء جرى فى جرى .. لماذا ؟ !

- غريبة .. انني لا ألاحظ ذلك !

وقلت وأنا أحاول أن ألحق بها :

- ولكنك تجرين الآن فعلا !

- كل الذى أعرفه أن هناك موعدًا لابد أن الحق به .. وعندما انتهى من هذا الموعد استطيع أن أفعل ما أريد ..

- أن تجلسى فى احد المقاهى مثلا ؟ !

- لا .. هذا متروك ليوم الإجازة ..

- اذن ما هو الشيء الذى ستفعلينه ؟

- أتسوق .. أتناول غذائى .. ليس هناك وقت !

ليس هناك وقت فعلاً، وجبات الطعام يتناولونها - غالبا - وهم وقوف .. يدفعون ثمن ما يريدونه، ويتسلمونه بأنفسهم .. ثم يأكلون فوق بنوك عالية فى سرعة وعلى عجل، وقد حاولت أن أفعل مثلهم، فأحسست أننى أؤدى واجبًا وظيفيًا - بالنسبة لجسمى - دون أن أستمتع بالأكل أو أحس طعمه !

* * *

جلست وحدى التقط أنفاسي فوق مقعد بحديقة واسعة.. الحديقة ليست مزدحمة .. أم ومعها طفل.. شاب وفتاة يتبادلان القبلات.. ثم فى مقعدين متجاورين تجلس فتاة وحيدة وفى استرخاء كامل جعل المينى جيب ينحسر أكثر مما يجب.. وعلى المقعد الآخر يجلس شاب يقرأ جريدة.. توقعت أن يتلصص الشاب على الفتاة وعلى ساقيها.. ولكنه خيب ظنى.. ظل منهمكا فى القراءة دون أن يعيرها أى التفات.. وبعد طول تأملى لهما اتضح أننى الوحيد الذى أتلصص على الفتاة، بل - بصراحة - لا أحيد بنظرى عنها!

وقبل أن أجمع شجاعتى لأقوم وأتحدث معها وأتعرف عليها رأيتها تقوم متهللة الوجه لتستقبل شابًا قادمًا من بعيد.. مدت له يدها فطبع عليها قبلة.. ومد يده أحاط بها وسطها وأحاطت هى وسطه باليد الأخرى.. وغادرا الحديقة!

سألت «واندا» حمراء الشعر ورموش العينين:

- هل تجدون وقتًا للحب؟!

وردت على الفور:

- كل وقتنا للحب!

- وبالطريقة نفسها.. الجرى؟!

- كل شىء له وقته.. وكل شىء للحب!

- لم تفهمى سؤالى!

- بل أنت الذى لم تفهم إجابتى.. وإذا كنت تقصد الحب فى

حجرة مغلقة فالعمل لا يستغرق النهار كله!

- الحب عندى ليس فى حجرة مغلقة.. أو فى الطريق.. ولكنى أقصد أنكم عمليون أكثر إنكم تفعلون كل شىء وكأنكم فى سباق!

- ولم لا؟! نحن فى سباق فعلا!

- ومتى ينتهى هذا السباق؟

- إنه كالحب.. لا ينتهى أبدًا!!

شاهدت فيلما فرنسيًّا، وخرجت إلى الطريق حوالى العاشرة مساءً وأنا متأكد تمامًا أننى سأعرف طريق إلى الفندق.. فدار العرض لم تكن بعيدة فى ضوء النهار.. ولكن فور أن أصبحت فى الشارع إختلط على كل شىء.. الأضواء كلها متشابهة.. وسيارات الأجرة لا تقف إذا أشرت إليها، بل هناك محطات محددة تقف فيها.

وفى هذه المرة تهت فعلا.. ولكن بغير إرادتى! ظللت أسير وأسير.. دون أن أتبين مكان الفندق.. أو حتى محطة واحدة من محطات سيارات الأجرة.. كنت جائعًا.. ولكن المحال كانت مغلقة بعد العاشرة.. وغلبتنى تعاسة لا أول لها ولا آخر.. ماذا أفعل؟.. وإلى أين أذهب؟.. لا أحد يعاوننى على الإجابة.. وإذا سألت فلا أحد يفهم اللغة التى أتحدث بها. لا فائدة غير اللغة البولندية.. حتى عندما نطقت اسم الفندق على طريقتهم لم يردوا بغير كلمة واحدة: بروستو..

وفهمت أنا معناها « دوغرى » . .

إحساس التعاسة و « التوهان » لم يمنعنى من متابعة مواكب الشباب التى تسير اثنين . . اثنين . . والخطوات الآن ليست مثل الخطوات فى النهار . . انها بطيئة وحالمة وتتهادى على ايقاع القبلات . . طيب . . وأنا أعمل إيه ؟ ! . .

انقذفى باب احد البارات الليلة، ولكنى لم أجد فيه غير « البيرة » فكانت وحدها عشائى فى تلك الليلة . . جلست لفترة أرقب حلبة الرقص، ثم قمت منصرفًا وقد نسيت تمامًا المشكلة التى سببت تعاستى قبل أن أدخل البار . . وعند الباب الخارجى نظرت أمامى . .

وكان « الفندق » عند الرصيف المقابل !

اخذت مفتاح حجرتى وأسرعت إلى الدور الثانى لأنام كالقتيل !

فى الصباح . . سألت « واندا » حمراء الشعر ورموش العينين :

- كيف أمضيت ليلة الأمس ؟

وقالت فى سعادة !

- كنت أرقص . . طول الليل كنت أرقص :

- أما أنا . . فقد تهت !

ضحكت قائلة :

- تهت ؟ . . هنا فى وارسو ؟ !

- نعم ! وقد تبينت فى النهاية أننى غير بعيد عن الفندق . . مجرد اختلاط أضواء !

- هل تعرف لماذا تهت.. لأنك لا تجرى مثلنا كما تقول.. فى الحقيقة نحن لا نجرى.. وإنما نختار.. فى العمل نختار ما يناسبنا ونلتزم بكل ما هو سائد فى بلدنا.. وفى حياتنا الخاصة نعيش حياتنا كما نريد.. ليست هناك حياة خاصة اشتراكية وحياة خاصة رأسمالية.. هناك حياة خاصة واحدة.. وهى أن تعيشها بأقصى ما يمكن من استمتاع.. وأن تفعل فيها كل ما تريد!

قلت وأنا نادم على ليلة الأمس:

- معك حق.. ولكن.. هل تغضبين إذا قلت لك إننى ألاحظ أن غالبية الشباب هنا يتصرفون بدافع من التقليد لا عن اقتناع!

انفعلت «واندا» وقالت فى غضب:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن السائد هنا قانون «فليفعل كل الأوربيين الشيء نفسه».. والموضة الآن.. الرجال بشعور طويلة.. والفتيات بالميكروجيب.. والجيل الجديد متمرد على كل شيء.. و..

وقاطعتنى واندا فى غير غضب:

- أوافقك.. ولكن ألا تفعلون أنتم فى بلادكم الشيء نفسه؟!

- ليس بصورة جماعية.. ولكننا لا نخضع للقانون الأوربى... هناك تقاليدنا التى نحافظ عليها ونحن نساير أى تطور..

قطبت حاجبيها وقالت فى غير اقتناع.

- وهل لاحظت أننا هنا بغير تقاليد ؟ !

- لا أقصد ذلك . . ولكنه مجرد إحساس . . هناك بعض أشياء أشعر أنكم تفعلونها بدافع التقليد فقط . . لا عن اقتناع حقيق !

حاولت أن تبتسم وهى تقول :

- لن أستطيع مناقشة إحساسك !

- فليكن . . ولكنى أريد أن اخضع هذه الليلة فقط للقانون الأورى !

ضحكت « واندا » طويلاً قبل أن تقول :

- عن اقتناع ؟ . . أم بدافع التقليد ؟!

وتنهدت قائلا :

لا . . ولكن خوفًا من أن أتوه ثانية :

الذين يعرفون الحب!

* عندما يكون الكلام هدفًا فى حد ذاته، يصبح خطره أشد من القنبلة الذرية.. الكلام لابد أن يكون وسيلة.. وهو بين رجل وامرأة فى حالة حب مجرد مقدمة.. وعندما يتلاشى الكلام، يكون قد تحقق الحب الحقيق *

ببساطة شديدة حاول أن تجاوبنى.. ماذا تريد من الدنيا بكل ما فيها؟.. الطعام الجيد؟.. الأوقات السعيدة الممتعة؟.. راحة البال؟.

كل هذا ممكن تحقيقه..

ولكن الأهم من هذا كله : أن تقول رأيك!

وأنت عندما تتكلم - بحرية - تتميز انسانيتك على الفور، تتحدد

ملامحك، تطرح وراء كظهرك المشاكل الصغيرة التى قد تجعلك فى مصاف أى كائن حى عادي، وتصبح كالفلاسفة كل ما يشغلك هو أن تجد الاجابة على الأسئلة التى تبدأ بلماذا؟ وبكيف؟!

لماذا أقول لك هذا الكلام؟ لأننى أود أن أحكى لك القصة الكاملة لنوادى الثقافة.. ونحن أحيانا نطلق عليها هنا فى بولندة اسم: نوادى المناقشة.. وعددها كثير.. كثير جدا. فى كل قرية.. فى كل حى.. فى كل مصنع.. وربما فى كل بيت:

حال هذه النوادى قبل الحرب الأخيرة يختلف عن حالها الآن.. البداية كانت محدودة فى المدن الصغيرة وفى القرى.. مجرد نواد صغيرة للشباب يشرف عليها المتعلمون.. ويجد فيها الشباب الفرصة لتمضية أوقات الفراغ. أحيانا كانوا يكونون فرقًا للتمثيل.. وأحيانا يكتفون بقراءة الكتب.. وفى أغلب الأحيان كانوا يقتلون الوقت بالكلام.. كلام عن زوجة فلان.. وكلام عن ابنة علان.. وبالطبع لم تكن الحكومة فى ذلك الوقت مهتمة بهذه النوادى أو بما يجرى فيها.. ولكن عندما بدأ بعض المدرسين التقدميين يغيرون مجرى الحديث فى النوادى. ويتكلمون عن أشياء مثل الظلم والعدل.. وأشياء مثل المستوى السيئ الذى يعيش فيه الفلاحون.. بدأت الحكومة تهتم.. ولكن بإبعاد هؤلاء المدرسين!

أنت تبتسم.. لا.. انتظر.. القصة مازالت فى بدايتها.. وأنت لم تتعرف على بعد..

اسمى «رادومسكى جرسيجوف»، ووظيفتى رئيس ادارة النوادى الثقافية.. وعضو فى حزب اتحاد الفلاحين.. وكنت يومًا من الأيام واحدًا من هؤلاء الذين اهتمت بهم الحكومة قبل الحرب.

كنت - كفلاح - اختزن فى صدرى الكثير.. ولم يكن مجرد الكلام هو الذى أريده.. الكلام عندما يكون هدفًا يصبح خطره أشد من القنبلة الذرية.. والكلام لابد أن يكون وسيلة.. وهو بين رجل وامرأة فى حالة حب مجرد مقدمة، وعندما يتلاشى يكون قد تحقق الحب الحقيق.. طبعًا أنت تفهم ما أقصد.. ونحن كنا نريد بالكلام أشياء كثيرة.. ولكن الحرب جاءت فغيرت مجرى كل شيء.. كتمت ألمانيا النازية على أنفاسنا بين يوم وليلة، تاريخنا ملىء بتكرار موقف ألمانيا هذا منا.. قد يكون ذلك بسبب حدودنا المشتركة، أو لأن بولندة تغلبها الخضرة.. أسباب كثيرة والمهم ألا نخرج من موضعنا..

بالمناسبة.. ماذا تفضل.. الشاى أم القهوة السوداء؟.

بعد القهوة.. معذرة.. أقصد بعد الحرب.. تغير الحال بالنسبة لنوادى المناقشة.. بعد التحرير أصبحنا دولة اشتراكية، وهنا كان يجب أن يزداد الاهتمام بالنوادى الثقافية، فالحكومة لم تعد شيئًا آخر غير الشعب، وسيلة القهر هى وسيلة الحكومات التى تخاف من الشعب، أما عندما تمد الحكومة يدها للإنسان الذى اختارها للحكم.. فإنه يفعل من أجلها. من أجل نفسه.. الكثير..

الفتاة التى تحبك بصدق تستعد لأن تفعل أى شيء من أجلك.. تضحى بحياتها راضية، أما إذا اختطفت أنت فتاة وقدمت لها بيتًا من ذهب.. فإنها ستقتلك فى أول فرصة مناسبة.

والاشتراكية تعنى الحب.. علاقة غرامية عنيفة تربط الإنسان بكل ما حوله.. طاقة الحقد التى يمكن أن يضيعها الإنسان فى غضبه على حكم يقهره.. تتحول إلى طاقة خلاقة بغير حدود.

تسألنى هل انطلقت نوادى الثقافة إلى وضعها الأمثل بعد الحرب؟.. وأجيبك أن هذا لم يحدث مرة واحدة..

كانت الحكومة مشغولة باعادة بناء كل ما دمره النازى. وإذا عرفت أن النازى دمر كل شيء فى بولندة.. فهذا معناه أن الحكومة كانت مشغولة جدًا.. وإذا تكلمنا بصراحة نقول إن بعض النوادى تسرب إليها هؤلاء الذين لا يعرفون الحب.. وجدوها فرصة لإملاء اتجاهاتهم المعادية للاشتراكية.. كتبوا مسرحيات تضع السم فى الدسم.. تصيدوا الشباب ليشحنوا رأسه بكلمات جوفاء عن الثراء، وعن أسطورة العالم الحر.

واستطاع هؤلاء الذين لا يعرفون الحب أن يصحبوا أقوياء..

أقوياء لدرجة أنهم استطاعوا إقصاء «جومولكا» عن الحكم كان ذلك عام ١٩٤٨ وارتكزوا على أسباب كالكلمات المعسولة.. وقال «جومولكا» قبل أن يذهب بعيدًا «إن الشعب سيكتشف بنفسه من هم أعداؤه..» وفعلا.. اكتشف الشعب أعداءه بعد فترة قصيرة..

تطلع الفلاحون والبسطاء إلى نوادى المناقشة فوجدوها سجونًا من ذهب.. كل شيء بالأمر.. وأنت تستطيع إذا كنت فى مركز القوة أن تأمر شخصًا بأن يجر عربة.. أو أن يحفر بئرًا.. ولكنك لا تستطيع أن تأمر بأن يستمتع بمسرحية.. أو أن يستفيد من كتاب.. لأنه هنا سيستخدم سلاحًا أقوى من القوة.. الرفض!

وسلاح الرفض استطاع الفلاحون والبسطاء أن يتغلبوا به على خطر كان سيقضى على كل أمل مشرق فى حياتهم..

ماذا كان يريد هؤلاء الذين لا يعرفون الحب؟.. كانوا يريدون الارتباط بالنظام الغربى.. بتبعية الإنسان لرأس المال.. وبشيء آخر أكثر خطورة.. الحركة الصهيونية التى اعتقدت أن دورها هذه المرة لن يتعدى دور البريمادونا فى مسرحية يفضلها الناس، ولذلك يجب أن يصفقوا لها.. وليس على البريمادونا إلا أن تضع على وجهها المكياج المناسب.. الاشتراكية.. يبقى على وجهها فترة عرض المسرحية.. فقط.. ثم سرعان ما تزيله بعد انتهاء العرض.. وقد اكتشف الناس هذه اللعبة بسهولة..

فرفضوا المسرحية..

ولعنوا البريمادونا..

وامتلأت صدورهم - من جديد - بالحقد؟ هل تكلمت كثيرًا؟.. معذرة.. العدل أن أعطيك الفرصة أنت لتتكلم.. أنت سعيد بما أقول؟.. فليكن.. أتكلم أنا!

مع عودة جومولكا عام ١٩٥٦ عادت الحياة الطبيعية إلى النوادى الثقافية.. أدرك الجميع دورها الكبير فى الحياة، هى ليست وسيلة للتسلية أو تمضية الوقت، وهى أيضا ليست ميدانًا لتصارع الاتجاهات وخاصة المضادة، وإنما هى كالأوردة والشرايين بالنسبة للقلب.. ولقد فات وقت طويل قبل أن يتأكد الناس من الدور الحقيق لهذه النوادى بعد الفترة التى قوبلوا فيها بالخداع؛ والمكياج؛ والكلمات المعسولة الكاذبة!

فى البداية قال البسطاء: هذه دعاية وليست ثقافة..

ثم قالوا: لا تفرضوا علينا شيئًا.. أتركونا نطلب ما نريد.. فهذه نواد وليست قاعات درس!

مشكلة.. ولكن هذه هى طبيعة الإنسان.. وأمام هذه الطبيعة لابد أن نفكر، ولابد أن نخضع لمشيئتها.. ولابد أيضا أن نزيل من طريق الحب كل ما شابه فى الماضى القريب من وسائل رآها الناس غير مشروعة!

الفتاة التى تحبك بصدق ورأتك بعينيها وأنت تقبل فتاة أخرى.. ماذا تتوقع منها.. لابد أن تغضب.. لن تكرهك ولكنها ستحتاج إلى وقت كبير لكى تصفو لك، وتعفو عنك، وتعود لتقترب منك!

وبدأت حملة واسعة لخلق حيوية نوادى الثقافة، الغيت النوادى التى لم تكن غير جدران، ووضعت أسس جديدة يكون القادة فيها بالانتخاب.. وأعنى بالقادة من يستطيعون أن يجعلوا من الكلمات

الروح التى تبنى فنًا.. وهذه مهمة صعبة.. فهم مهددون فى كل لحظة بأن يتهموا بأنهم مجرد «بوربجاندست».. أو انهم يتهمون بأنهم موظفون.. وهنا قد ينفض الناس عنهم، ويفقدون الثقة بهم!

وفى كل سنة.. يدعى كل القادة إلى مؤتمر كبير بوزارة الثقافة فى «وارسو».. وفى هذا المؤتمر تتلاقى جميع الأفكار وتسطرح كل المشاكل.. وتوضح أيضا خطة العمل بالنسبة للسنة التالية!

شعار هذه المؤتمرات:

«الحياة ليست أوامر.. وإنما تنفيذ رغبات»!

وبهذه الصورة يحدث الاندماج الكامل.. فلا تعرف من الذى وضع الخطة.. النوادى نفسها.. أم الوزارة؟.. المهم أن يقول كل إنسان ما فى صدره، وأن يعبر كل فنان عن مشاعره، وأن يتطلع الجميع دون ما اختلاف إلى تأكيد كل القيم الجميلة فى الحياة.

هل تعرف أعظم فائدة لنوادى الثقافة.. أو كما نسميها نحن أحيانا نوادى المناقشة؟

تقول أكثر من فائدة.. الوعى.. مواكبة أى تقدم ثقافى وعلمى.. حب الفن.. وأقول لك إن الفائدة أكبر من هذا..

الفائدة أن تكسب مواطنًا مقتنعًا!

الاقتناع شىء ضرورى وحيوى.. وصعب!

والمواطن لكى يقتنع لابد أن يكون طرفًا فى حوار.. وأن يكون طارحًا لسؤال.. أو واضحًا لجواب.. وهذه التجربة أفادتنا كثيرًا هنا

فى بولندة.. استطعنا فضح العناصر المعادية المخربة - وخاصة الصهيونية - واستطعنا أن نجعل التنظيم السياسى كيانًا واحدًا له شرايين وأوردة كثيرة.. ولكنه ينبض نبضًا واحدًا!

هل تكلمت كثيرا؟.. معذرة.. ما رأيك فى قدح آخر من القهوة السوداء؟

تسألنى هل تتدخل النوادى فى الحياة الخاصة للناس؟.. وفى الحقيقة أنا لا أفهم بالضبط ماذا تعنى بسؤالك.. الحياة الخاصة لأى إنسان تظل خاصة مادام هو لا يريد الحديث عنها.. أما إذا طلب المعاونة فهو يخرج بها عندئذ من دائرة ضيقة إلى دائرة أوسع.. ويكون الحديث عنها بعد ذلك تلبية لرغبته.. ما إذا كنت تقصد بسؤالك أى نوع من التدخل أو القهر.. فالتجربة قد علمتنا ألا نفعل ذلك أبدًا.. نحن ضد جدران الذهب.. لأن الجدران يمكن أن تسجن إنسانًا.. ولكنها لن تستطيع أبدًا أن تسجن أفكاره.

والآن.. هل تستطيع أن تجاوبنى.. ماذا تريد من الدنيا بكل ما فيها؟

هيا.. اسمعنى.. قل رأيك!

ممنوع اللمس!

عيناى تتشربان الخضرة، وذهنى سارح، والعربة الصغيرة تنطلق بنا نحو الريف المجاور لبوزنان وسؤال غريب أنتبه له فى دهشة: قل لنا شيئا بلغتك.

حاولت أن أقول شيئًا بالعربية، ولكن - للغرابة - لم أستطع!

ما معنى الكلمات إذا كنتم لن تفهموها؟!.. مهما قلت لكم الآن فلن يكون بالنسبة لكم إلا مجرد صوت!

السؤال مازال فى العيون الزرقاء والجواب سؤال قلته على عجل بالعربية «حاقولكم إيه؟..» رددوا كلماتى فى إعجاب شديد ثم عادوا يقولون.. «ما معنى ذلك؟.. وأدركت ساعتها أننى واقع فى مشكلة، الترجمة الحقيقية لما قلته لن تعنى إلا أن يطلبوا من جديد سماع

كلمات أخرى، وقد يهون كل شيء بالنسبة لى إلا أن أكون هدفًا لعيون تقتحم الحدود التى تقبع فيها شخصيتى ولن أخرج من هذا المأزق إلا بعد أن أقول أى شيء والسلام، وهربت عيونى من العيون الزرقاء ناحية الحقول وقلت بالعربية : « أهى كلها خضرة واحدة.. لكن الناس موش زى بعض » !

وعندما سألونى عن معنى هذا.. ضحكت.. ولم أجب !

عندما عرفت أننى سألتقى بمعبود البولنديين وممثلهم الكوميدى الأول « كوبيلا ».. تساءلت بينى وبين نفسى.. هل سأضحك عندما أراه ؟ شارلى شابلن كانت له لغة عالمية، وهى ألا يقول شيئًا، لذلك كانت أفلامه الأولى الصامتة هى أروع أفلامه.

كان « كوبيلا » يستعد للقطة فى فيلم جديد، وقدمنى إليه مخرج الفيلم وهو يردد أننى لابد وقد رأيت أحد أفلامه؛ وخجلت أن أقول إن هذا لم يحدث، وابتسمت ملامح كوبيلا ليقول فى خفة دم : أعتذر إذا كنت قد رأيتنى ولم تضحك.. ولم يكن أمامى إلا أن أنقذ الموقف بأن أسأله :

ما هى هواياتك الأخرى بجانب التمثيل ؟

غمز بعينه وقال على الفور : الخمور !

وعدت أسأله :

هل أنت كوميدى فى حياتك الخاصة ؟

تغيرت ملامحه وقال وهو يتنهد : أبدًا.. حزين.. حزين !

قلت : أهى قصة حب فاشلة ؟

خبطنى على كتفى وهو يقول : دعك من الفتيات !

وسألته ؛ من تفضل من الكوميديين العالميين ؟

- كممثل لا أحد.. وإنما كمخرج «جان كوكتو»..

مخرج الفيلم «جانوت» يشرح لى وهو يضحك عاليًا اللقطة التى يصورها «كوبيلا» الآن، وأنا أحاول أن أضحك مجاملة، وتصوير اللقطات لا يتوقف رغم هطول المطر !

أوبرا «وارسو» مزدحمة على آخرها وأنا جالس فى أحد الصفوف أعيد قراءة قصة «القصر المسكون» التى سأشاهدها بعد لحظات وقالت لى «بربارا جينسكا» عندما بدأت تخبو الأنوار : «أظن أن لغة الأوبرا غير مهمة.. يكفى أن تفهم القصة.. وستكون الأصوات بعد ذلك مكملة للموسيقى»..

هززت رأسى وأنا أقول كاذبًا ؛ «طبعًا.. دون أى شك» !

مشاهدة الأوبرا عندهم غذاء أسبوعى، يحرصون عليه بمختلف أعمارهم أكثر من حرصنا على انتظار اللحم يوم الخميس، وعندما بدأت الموسيقى أدركت على الفوز أننى لابد أن أواجه نفسى بصراحة وحزم.. وأطوعها - رغم تمردها السابق - على تقبل وتذوق هذا الفن العظيم، ولكنى - رغمًا عنى - كدت أنفجر ضاحكًا عندما بدأت ترتفع أصوات أبطال الأوبرا، إنهم - مهما كانت اللغة.. يقولون الكلمات بطريقة لا يستسيغها إلا من تعود على مشاهدة الأوبرا

وسماعها.. وقد أدرك الصحفى الأسبانى الذى يجلس إلى جوارى ذلك فسألنى هامسًا:

أجبته: وهل تفهم أنت؟

مال ناحيتى ليقول: «أبدًا.. ولكن لابد أن تفوت الليلة على خير».

فى الاستراحة الأولى قالت «بربارا» إنه يجب علينا مشاهدة متحف الأوبرا وفيه الملابس التى يرتديها الأبطال منذ مائتى سنة وفى الإستراحة الثانية قالت «بربارا» إنه يجب علينا زيارة المكتبة التى بها المخطوطات والنوت الموسيقية وفى نهاية السهرة شكرنا بربارا وانسحبنا إلى الطريق مسرعين.. وقال لى الصحفى الأسبانى ضاحكا:

أدركنى بمكان أحتسى فيه البيرة.. وأرقص..

وشددت على يده وأنا أقول: أدركنى أنت..

* * *

رأيت هنا جميلات كثيرات ملكات جمال إن أردت التحديد، ولكن «وانداناتزى» جمالها يختلف.

هى ليست مجرد شقراء، وليست مجرد تقاطيع متناسقة، وليست مجرد جسد رشيق وكأنه تمثال اغريق. إنها - بلغة البولنديين - تحفة حقيقية، تشعر وأنت تنظر إليها أن الخالق - جل شأنه - قد خص هذه الفتاة بكل ما عنده من جمال.. ولكنها رغم فتنتها الصارخة،

أو بتعبيرنا البلدى «اللى تدوخ» كانت مرتبكة، وخائفة.. وتلمع على جبينها قطرات العرق!

كانت واندا ناتزى تستعد لتصوير أول لقطة سينمائية فى حياتها، وقد اختارها المخرج بعد أن شاهدها فى ديفيليه كانت فيه أروع مانيكان.

سألتها: ما رأيك فى التمثيل؟

ردت فى صوت خافت وكأنه نغمات جيتار صغير:

- لا أعرف.. ولكنى خائفة!

وقلت فى شجاعة أحسد عليها: لماذا وقد تعودت نظرات الناس أثناء عملك كمانيكان؟!

ابتسمت لتقول:

- ربما.. ولكن العيون هنا - وأشارت إلى الكاميرا - زجاجية!

وبشجاعة تفوق الحد عدت أقول: إن هذه العيون الزجاجية لو دبت فيها الحياة.. لما أعجبت إلا بك.

ضحكت الممثلة الجميلة الناشئة وهى تردد كلمات معناها أنى أجامل وأنى أبالغ، وأنها إنسانة عادية جدًّا، ولابد أن هناك - فى مصر مثلا - من يفقنها فى الجمال..

وتدخل المخرج قائلاً: سأرسل لك صورتها فى القاهرة: إنى واثق أنها ستصبح نجمة عالمية..

فوجئت بها تسألنى.. هل عرفت قصة الفيلم؟!

ولحسن الحظ كان المخرج قد أعطانى فكرة عامة عنها، ولحسن الحظ أيضًا أنها لم تنتظر اجابتى بل قالت على الفور:

- المفروض اننى وديعة.. أبحث عن الزوج المناسب.. وبقية القصة التى عرفتها..

وسألتها: وهل الدور مناسب لك؟

ابتسمت قائلة:

- إنه أول دور لى.. ولا أعرف.. هل ترانى وديعة؟

تدخل المخرج ثانية: بدون شك ياعزيزتى.. بدون شك.. استعدى الآن فنبدأ التصوير.

- يجب أن تشاهد الفيلم وتقول لى رأيك!

وقلت فى حماس حقيق: لابد أن أراه.

وقلت لنفسى وأنا أتابعها بعنيى: «لأنى لابد أن أراك أنت!»

* * *

لكل شيء قديم متحف، الآلات الموسيقية لها متحف، الأثاث له متحف، آلات الصيد لها متحف.. وفى أحد قصور نبلاء بولندة القدامى رأيت الصالة التى كان يستقبل فيها أصدقاءه بعد عودتهم من رحلات الصيد..

الصالة ليس بها كراسى، ولكن بها «كنبة» دائرية بحيث أن

الجالسين عليها لا يشاهد أحدهم الآخر.. وسألت لماذا؟ وقالوا ضاحكين: لأن النبيل كان يعرف أنهم جميعا سيكذبون ولذلك فقد أعطى كل منهم الفرصة ليروا أكاذيبه فى الصيد دون أن يخجل من عيون من كانوا فى رفقته ويعرفوا الحقيقة كاملة!

فى متحف الآلات الموسيقية القديمة سألت السيدة العجوز التى تشرف على الآلات التى تتآكل: هل هو مجرد عمل لك أم أنك تحبين الموسيقى فعلا؟

أجابتنى وهى ترمق الآلات فى إعجاب:

- لقد اخترت هذا العمل بنفسى.. ولو نقلت إلى مكان آخر سأحزن..

رغما عنى امتدت يدى إلى أصابع بيانو يبدو كمنضدة طفل صغير.. وفوجئت بصوت السيدة العجوز يعلو فى غضب:

- ارجوك.. لا تلمس شيئًا!

وعبثًا.. حاولت أن أعتذر!

فى المعرض!

تركنى. ووقف كالمذهول أمام الآلة الكبيرة المعقدة المكتوب عليها بالإنجليزية «تفعل كل شىء».

أخذت أرقبه - بدورى - فى ذهول.. وقد نسى وجودى تماما.. والمفروض أنه فى صحبتى ليدلنى على الطريق.. وحاولت بشتى الطرق أن ألفت انتباهه إلى أننى قد شبعت فرجة فى هذا المكان ولكنه تكلم كأنه يحلم:

«كم هى سهلة وجميلة.. الحياة الأمريكية»!

لم تدهشنى كلمات الصديق البولندى ابن «بوزنان» ففى كل مرة أزور فيها المعرض الكبير الذى يقام سنويًّا فى بلدته.. كنت أشاهد

نظرات الانبهار التى توشك أن تلتصق بكل ما يعرض فى القسم الأمريكى !

وجاهدت كثيرا حتى لا أتفلسف، أو أن أقول كلمات مثل « إنها دعاية.. » أو « إن الشعب هناك لا يستمتع بهذا » فمهما قلت.. ماذا سيفعل الكلام أمام آلاف الدولارات التى أنفقت فى ذكاء لكى تجىء المعروضات الأمريكية إلى قلب مجتمع اشتراكى، وتكون دليلاً - كما يريدون - على أن الحياة فى مجتمعهم الرأسمالى أيسر.. وأسهل.. وأجمل !

إذا كانت بولندة هى صاحبة المعرض.. وقسمها فيه هو أكبر الأقسام، فأمريكا كانت حريصةعلى ألا يقل قسمها فى أى شىء عنه.. ولا مانع من أن تجىء مع الآلات الأتوماتيكية والعقول الإلكترونية.. فتيات صارخات الجمال بالمايوه وبالمينى جيب وبالإبتسامات التى لم أراها إلا بلهاء !

* * *

طوال جولتنا خارج المعرض، وصديق البولندى حريص على أن يبدى لحظة وأخرى إعجابه بما يعرضه القسم الأمريكى، يقول ذلك ونحن فى زيارة الكتدرائية التى تضم التماثيل المصنوعة من الذهب الخالص، أو ونحن فى زيارة قلعة « كورنيك » التى تعرض لوحات من القرنين السادس والسابع عشر، أنا أسأله عما أراه فى هذه الأماكن..

وهو يرد فى اقتضاب ليعود ليتحدث عن الآلة التى تفعل كل شيء :

« تصور . . لم يعد مطلوبا من الإنسان أن يقوم بأى جهد . . يكفى أن يضغط على زرار ليحصل على ما يريده » . .

وأقول له :

« بالطبع . . ولكن هل سيحصل على هذه الآلة كل إنسان فى أمريكا » ؟

ويرد وهو يرمقنى فى دهشة :

« ولم لا يحدث ذلك » ؟

وابتسم وأنا أرد عليه :

« أعتقد أنك أدرى منى بذلك . . المجتمع الرأسمالى تستمتع فيه طبقة معينة بكل شيء ، وبقية الشعب تعانى من كل شيء ! » .

وتتغير نبراته وهو يقول :

« ربما . . ولكن لا يبدو أن مستوى المعيشة هناك يسمح بوجود العدد الكبير الذى يعانى و . . »

وأقاطعه :

« بل يسمح . . وهناك الملايين من المتعطلين والفقراء والذين يؤدون أحط الأعمال من أجل لقمة العيش » .

وأتوقف . . لأقول ثانية فى انفعال حقيق :

« وهناك الزنوج أيضًا » !

وتسبقنى خطواته وهو يقول :

« أعرف.. ولكن هذا الذى شاهدته عظيم.. رائع »!

فى أحد أركان المعرض الكبير يوجد قسم «كوريا الديمقراطية»، وهو قسم صغير فى حجم القسم العربى، وبالنسبة للقسم الأمريكى كالنسبة بين كوخ.. وقصر كبير!

المعروضات الكورية ليست كثيرة، وليست معقدة، ولكن فى واجهة القسم توجد صورة كبيرة بحجم الحائط كله.. والصورة عبارة عن جندى بحار كورى يشهر السلاح فى ظهر اثنين من بحارة سفينة التجسس الأمريكية «بويبلو» التى أسرتها البحرية الكورية.. وابتسمت فى إعجاب شديد وأنا أتطلع إلى الصورة التى تقول مئات الأشياء. وترد على كل الأسئلة!

* * *

فى اليوم التالى فوجئت بالخبر:

« المسئول عن القسم الأمريكى فى سوق «بوزنان» قدم مذكرة إلى ادارة المعرض يطلب فيها رفع الصورة التى تعرضها كوريا الديمقراطية، ويحتج على وجود مثل هذه الصورة التى تسىء إلى أمريكا»!

بقية الخبر:

« المسئول عن القسم الكورى يؤكد أن الصورة لن ترفع.. وأنها فى مكان يعتبر أرضًا كورية»!

الآلاف يتوافدون على المعرض الكبير.. ويتجولون بين أقسامه

التى تغطى مساحة مدينة صغيرة، ولا أحد يدرى شيئًا عن الإحتجاج الأمريكى . .

كنا عند مفترق الطرق، وكنت قد حفظت كل مسالك المعرض، ورأيت خطوات صديق البولندى تتجه ناحية اليمين، فقلت على الفور :

« إلى القسم الأمريكى ثانية ؟ ! »

وابتسم وهو يرد على :

« لعلك لم تعلم »

سألته فى فضول كبير :

« لم أعلم ماذا . . هل سيهدون الآلات إلى رواد المعرض ؟ ! »

ضحك وهو يقول :

« لا . . ولكن القسم الأمريكى أغلق أبوابه » !

إرتفع صوتى متسائلًا :

« ولماذا » ؟ !

رد فى اقتضاب :

« بسبب الصورة التى تعرضها كوريا الديمقراطية » !

وانفجرت ضاحكًا وأنا أردد كلمة واحدة :

« برافو » !

وقال وهو يشاركنى الضحك :

« يبدو أن آلاتهم ليست وحدها التى تفعل كل شىء . . هناك

من يستطيع أن يفعل بهم كل شيء!»

* * *

غادرت «بوزنان» وذهنى لا يبارحه ما حدث هناك.. وفى «وارسو» جمعتنى سيارة كبيرة مع عدد من السياح الأمريكان العجائز.. وفى احد الطرق الرئيسية توقفت السيارة لتقول المرشدة السياحية فى لهجة خطابية:

«والآن.. تشاهدون السفارة الأمريكية».

ونظرت خلال زجاج النافذة لأشاهد بناء ضخمًا يعلو عن الأرض كثيرًا وكأنه قلعة حديثة.. وكل شيء فى البناء معد فى إتقان شديد لا يهدف إلا خطف الأبصار!

وقاومت طبيعتى المصرية حتى لا يرتفع صوتى:

«ليتكم تدلوننا على مكان سفارة كوريا الديمقراطية»!

وبطبيعتى المصرية انفجرت ضاحكًا.. دون أن يعرف أحد السبب!

فتيات بالبكينى.. والبالطو!!

فى كل شارع، وفى كل ميدان، ستجد ما يشير إلى أن المدينة عمرها سبعمائة عام ولكن هذه الاشارة تضيع وسط المبانى والمعالم الحديثة التى تؤكد أن عمرها لا يتعدى عشرين سنة!!

ذلك أن «وارسو» قديمة.. عتيقة.. كانت مسرحًا لجولات وحروب نبلاء القرون الوسطى.. ثم فى غمضة عين تحولت إلى أرض خراب وأطلال.. لأن هتلر أراد ذلك!

وقد تركت مطار القاهرة وحر يونية يصل بالترمومتر إلى درجة الأربعين، ولكنى عندما وصلت إلى مطار وارسو. كان الجو عاصفًا والسماء تمطر.. وقد ظلت السماء تمطر طوال ليلة وصولى ثم كانت درجة الحرارة فى الصباح أشد منها فى القاهرة!

مطار «وارسو» يبدو وكأنه أحد المعسكرات السريعة البناء، ليس فيه فخامة، أو ضخامة.. أبنية من دور واحد كل شيء فيها يجرى بدقة بالغة، وأكثر من شخص يساعدك على إنهاء الإجراءات الجمركية.. تماما كأنك تسير سيرك العادى لتعبر معسكرًا من أوله حتى آخره!

فى الطريق من المطار إلى قلب المدينة تشعر على الفور أنهم هنا يعبدون الخضرة.. الأشجار على جانبى الطريق، البيوت محاطة بحدائق، ثم حدائق عامة فى كل مكان، لذلك ذهبت دهشتى التى تساءلت معها وأنا أطل على «وارسو؟ من نافذة الطائرة.. كل هذه الخضرة، هل هى مدينة زراعية؟!

القصر الذى تراه من كل مكان:

من أى مكان فى وارسو ستشاهد هذا القصر.. الذى يرتفع إلى ٣٠ طبقة تعلو عن الأرض بأكثر من ٢٣٠ مترًا.. وسيقولون لك إنه قصر العلم والثقافة، وإنه هدية من شعب الاتحاد السوفيتى إلى الشعب البولندى.. وسيقولون لك أيضًا إنك ستجد قصرًا مثله فى موسكو، ثم فى كل عاصمة من عواصم دول أوروبا الاشتراكية.

لطالما خدعنى هذا القصر وأنا أتجول فى شوارع «وارسو» كنت أعتمد عليه فى أن يكون دليلاً لى عندما أتوه فى الشوارع المتشابعة. وفى كل مرة كان يبدو لى قريبًا جدًّا.. وفى كل مرة كنت أتوه!!

أكبر الشوارع اسمه شارع « القدس ».. وعلى الشوارع المتفرعة منه تقع أكبر الفنادق هنا.. « بريستول » و « يوبيسكى » أما الإدارة الرئيسية للجامعة فتقع على شارع القدس نفسه.. حيث كانت مسارح أحداث الماضى، ومظاهرات الطلبة!

جوانب الطرق مزدحمة بالمحال التى تتفاوت مواعيد عملها وكلها محلات « تعاونية » تملكها الحكومة.. ولذلك فكل شيء عليه سعره المحدد « بالزلوق » العملة البولندية المعروفة! وقد اندهشت كثيرًا عندما وجدتهم يضعون « الطماطم » خلف الواجهات الزجاجية وكأنها فاكهة غالية نادرة.. وهى هنا كذلك فعلاً وسعرها يقرب من جنيه مصرى!

ومع موجة الحر التى غلبت « وارسو » فى منتصف يونية - وهم يؤكدون أنها موجة غير عادية - كانت تنتشر فى الطرقات العربات الصغيرة التى تبيع المرطبات والمياه المعدنية المثلجة.. وعادة ثمن الكوب زلوق واحد!!

شوبان.. وكوبرنيكوس:

التماثيل فى الميادين العامة كثيرة.. ولكن أشهرها هنا تمثال « شوبان » الذى يتوسط حديقة كبيرة باسمه تمض متحفًا يحتفظ بكل شيء لمسته يداه.. ثم تمثال الفيلسوف « كوبرنيكوس » البولندى الذى قلب وجه علم الفلك والفلسفة أيضًا.. فهو الذى قال إن الأرض

هى التى تدور حول الشمس، وإنها ليست كما كان يقول الأولـون.. مركز العالم كله!

وبخلاف هذين التمثالين.. تمثال فتاة تشـهر سيفًا وهـم يعتـبرونه رمزًا لوارسو التى دافعت بـكل شىء.. ضـد جـبروت النـازى.. وقاومت حتى وهى أرض خراب!

بعد يومين أو ثلاثة فى «وارسو».. ستزول غـربتك فى المدينـة، ستشعر كأنك فى مدينة عشت فيهـا سنوات طـويلة.. الأتـوبيسات نفسها، المترو نفسه، وحتى «الـترولى بـاس».. وإن كنـت شرقيـا فستقف قليلا أمام مشهد المرأة التى تقود المترو.. أو المرأة التى تقـوم بدور «عسكرى المرور» وفوق شعرها الأشـقر «الـكاب» الـرسمى.. ويداها الرقيقتان تتحكمان فى رشاقة بين مئات السيارات التى تـتزاحم عند تقاطع الطريق!!

فى المدينة سوقان رئيسيتان.. سوق «وارسو» الحـديثة، والأخـرى فى القسم القديم الذى نجا من قنابل الحـرب.. وبـقى كل شىء فيـه كما كان عليه منذ القرنين السـادس والسـابع عشر، ومـن ميـدان «زامكوفى» الذى يتوسطه تمثال الملك «سيجموند» الثالث - منذ عام ١٩٤٤ سيقودك أكثر من شارع إلى «وارسو» القديمة.. حيث أغـرب سوق فى أوربا.. البيت الصغير قد يبدو عاديًا فى نظرك ولـكنك لـو تخطيت بابه فستجد محلاً إلى يمينـك ومحـلا آخـر إلى يسـارك.. ثم تصعد بضع درجات خشبية لتجد أكثر من محل فى الدور الثانى!

عبادة كل قديم:

وهم هنا يعبدون كل ما هو قديم.. يعبدونه لدرجة أنه إذا كان ضروريًا إعادة بناء أحد البيوت القديمة، فإنهم يحتفظون بأحد الجدران القديمة.. ليقيموا أمامها أو فوقها البناء الجديد!

فى أكثر من شارع من الشوارع الرئيسية.. كنت أقف أمام عمارة كبيرة فخمة البناء، ثم أرى فى واجهتها جزءًا قديمًا متهدمًا.. محاطًا بالجديد فى حرص شديد، وكأنها الجدة العجوز المتهالكة تجلس وسط أحفادها وبينها وبينهم عشرات السنوات:

أغلب الأغنيات تتغنى بالقديم..

إيه.. ياوارسو.. ياعتبة..

عمرك سبعمائة عام.. وأكثر..

النبلاء.. وفرسان العصور الوسطى..

ولكنك ذات ليلة مشئومة.. فقد كل شيء!

ونحن أحفادك.. سنبنيك من جديد..

وستبقين ياوارسو الجديدة.. قديمة!

وعندما كنت فى وسط المدينة القديمة.. قالوا لى إنت مدعو لمشاهدة فيلم تسجيلى..

قاعة السينما تكاد تكون وسط «بدروم» بناء عتيق، ولكنها حديثة، ونظيفة، وعندما أسدلت الستائر السوداء.. لمعت الشاشة

.. الفيلم «ستبق وارسو».. ويحكى الفيلم فى حرارة شديدة قصة «وارسو» وأهلها قبل عام ١٩٣٩.. ثم ما حدث فى تلك السنة.. عندما اجتاح النازى وارسو.. هدموا كل شىء فيها.. البيوت تتساقط أمام عينى فوق من فيها.. الأطفال والعجائز يجرون فى الشوارع فى هلع.. وجنود النازى يسيرون فى خيلاء فوق الاشلاء والجثث..

دمار.. دمار.. وأسمع وسط ظلام القاعة صوت نشيج وبكاء الشبان الذين يشاهدون الفيلم.. وفتاة تكاد تولول وهى تتابع ما تراه..

وسنة بعد سنة.. تمر الأحداث الرهيبة على «وارسو» حتى يجىء جيش التحرير.. تآلف بين الجيش السوفيتى والجيش البولندى الذى تجمع ليحرر وارسو من جديد.. وما أن يأتى عام ١٩٤٤ حتى يبدأ صراع بطولى، ونضالى يفوق كل خيال للبناء من جديد!

عشرات الرجال والنساء يرفعون الأنقاض.. لا ليعيدوا بناء بيت أو بيتين.. وإنما لبناء مدينة بأكملها!

حتى الأوبرا:

فى أوبرا وارسو.. سيقولون لك فيما يشبه الاعتذار.. إنك ستلاحظ أن البناء حديث.. لكنها أوبرا قديمة جدًا.. ماذا نفعل وقد حطمها الألمان!؟

المسارح كثيرة، والملاهى الليلية أكثر، وعندما كنت أراهم يمرحون

ويرقصون كنت أظن أن الزمن قد استطاع أن يغسل الجراح القديمة.. ولكنك تفاجأ بأن غالبية الأعمال الدرامية: عن الحرب!

عن جرائم النازى ضد البولنديين.. عن حرب الإبادة التى أخذت من تعداد وارسو أكثر من ثلاثة أرباع مليون نفس بشرية!..

حتى الشبان الصغار.. إنهم يمرحون فى حياتهم العادية، ويراقصون الفتيات، ويمارسون الحب فى كل مكان حتى فى الشوارع.. ولكنك إذا تجاذبت أطراف الحديث مع واحد منهم، فلن يقول غير: كل ما حولك جديد.. لأننا فقدنا مدينتنا القديمة العريقة!

ولن تستطيع أن ترد عليهم بغير:

أيتها الحرب.. اللعنة!

بعيدًا.. عن البحر:

وارسو بعيدة جدًا عن البحر.. لأنها تقع جنوب الساحل الشمالى لبولندة حيث بحر «البلطيق».. لذلك فإن نهر «فستولا» الذى تقع عليه المدينة، يعتبر بمثابة المتنفس والمصيف لكل أهالى المدينة، وهم لا يعتمدون عليه فقط.. فهناك البحيرات الصغيرة.. الطبيعية والصناعية.. وفى أيام الحر والإجازات.. يهرعون إلى النهر وإلى البحيرات ليستحموا فى مياهها وينصبوا الخيام وكأنهم على ساحل بحر لا نهاية له!

ومع تقلبات الجو.. من الحر الشديد.. إلى المطر والعواصف..

فقد كنت أرى الفتيات بالبكينى فى شرفات المنازل.. وفى البحيرات، وعلى ضفاف «فستولا».. ثم فى آخر النهار أراهن وقد تدثرت كل واحدة منهن بالبالطو.. وكان اليوم الواحد قد تحول كما تتحول السنة عندنا.. إلى صيف وشتاء..

كل شيء.. للصغار:

وأنا فى طريقى لزيارة أحد المصانع البولندية.. كانوا يشيرون لى إلى المتاحف القديمة، وإلى القصور التى تحولت بدورها إلى متاحف..

أسماء القصور والمتاحف غريبة، وقد صعب على حفظ أو كتابة اسم كل منها.. حتى الكنائس - وهى أيضًا كثيرة - كنت لا ألتفت كثيرًا إلى اسم كل منها.. أكثر من التفاتى إلى بنائها الذى يعود إلى القرون الوسطى.. والكنيسة التى تهدمت فى الحرب يعيدون بناءها على الطراز نفسه!

وعندما أصل إلى مصنع «بولكا» للأدوية.. أشعر بطعم الحياة الحديثة لبولندة.. الحياة الاشتراكية الحقة التى ينظر فيها إلى العامل كأنه إنسان مقدس.. كأنه بيت قديم لم يهدم فى الحرب!

بعد أن شاهدت الآلات.. ذهبت إلى مدرسة المصنع.. وهى مدرسة فريدة، أتمنى أن تطبق هنا فى بلادنا.. المدرسة تكاد تكون صورة مصغرة من المجتمع بكل آلاته.. وفيها يتعلم من يريد من أبناء العمال وأبناء المنطقة المجاورة للمصنع.. كل شيء عن العمل

وطريقته.. وإلى جانب ذلك يتلقون التعليم النظرى العادى.. أما «بيت الحضانة» الملحق بالمصنع.. فهو يعطى المعنى الحقيق للاشتراكية عندما تتلخص فى ثلاث كلمات : الإنسان الحب، المستقبل !

عناية تفوق الحد بأطفال العاملات.. لدرجة أن لكل طفلين مربية خاصة.. والأطفال تتراوح أعمارهم بين يوم واحد وأربع سنوات.. ولكم رقص قلبى عندما دخلت حجرة يلعب فيها صغار فى الثالثة واستقبلوف فور أن دخلت بكلمات : صباح الخير.. أهلاً وسهلاً !

فهمت كلماتهم.. وانفعلت كل عواطفى.. رغم أنهم قالوا ذلك بأصواتهم الملائكية.. بلغة لا أعرفها !

ليس كل شىء :

هل قلت كل شىء عن وارسو؟.. أبدا.. هذه هى أحاسيس عندما شاهدت هذه المدينة التى تتوسط أوربا.. وكانوا كلما أعطونى النشرات السياحية التى تحدد لى معالم كل شىء.. ابعد هذه النشرات عن يدى.. لأكتفى بأن أتطلع لكل شىء بنفسى.. وأسأل.. لأرى الملامح على وجه الإنسان عندما يعطينى الإجابة !

وكما استقبلتنى وارسو.. ودعتنى..

الأيام الأخيرة لى فيها كنت أشعر كأنى فى القاهرة.. الجو حار

خانق.. ولكن فور أن عبرت الدائرة الجمركية وأخذت طريق إلى الطائرة.. أظلمت السماء وبدأت تمطر..

مطر فى البداية..

ومطر عند الرحيل..

ولكنى - يا وارسو - سأعود إليك!

برلين . . .
شهور طويلة
وكلمات قليلة

قنبلة فى فم الغواصة !

دوى صوت الانفجارات، إنزعجنا كلنا، ولكنه لم ينزعج، كاد يستمر فى محاضرته عن « الحرب والسلام ». عندما لاحظ أننا - مع صوت الانفجارات - قد توقفنا عن الكتابة، إبتسم وقال ببساطة : « إن الانفجارات تجرى فى « أوستبانهوف » وهى لتفجير البيوت القديمة لبناء بيوت جديدة مكانها » !

هكذا ببساطة، وهو جالس بيننا يعرف ماذا يجرى فى مكان يبعد كيلومترات، وقبل أن يسأله أحدنا بالبساطة نفسها : « كل إنسان لابد أن يعرف ماذا يجرى فى بلده » !

لم يستمر « دكتور فريكا » فى محاضرته، عاود الابتسامة ثم قال فى اهتمام مفاجئ « عندى لكم خبر مثير. لقد وجد عمال البناء فى

برلين بالأمس قنبلة مدفونة منذ الحرب العالمية الثانية، القنبلة تزن « ٥٠٠ » كيلو جرام ومكتوب عليها صنعت فى الولايات المتحدة الأمريكية . » !

« بعد اكتشاف القنبلة - وقد جاء ذلك متأخرًا ما يقرب من الثلاثين عامًا - ترك حوالى ألف شخص من أهالى برلين منازلهم، وظهر على الفور الرجل المختص بهذا العمل والذى تمكن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن من القضاء على خطورة ألف قنبلة لم تنفجر أيامها ! ».

فى فترات الراحة ما بين المحاضرات كان يحلو لنا ان نلتق بالغواصة - « دكتور فريكا » لنتجاذب معه أطراف الحديث بواسطة المترجم وكان فى كل مرة يقول إنه لا يعرف من الانجليزية إلا كلمات قليلة جدًا لا تتعدى عدد أصابع اليدين. وصدقناه فى ذلك الوقت. . لكن كانت دهشتنا كبيرة عندما لاحظ أثناء المحاضرات التالية أن هناك ضجة بين صفوفنا حول معنى إحدى الكلمات المترجمة. ورأينا الغواصة بدون أية مقدمات تندفع فى الحديث بالانجليزية، ولمدة طويلة، وبطلاقة يحسده عليها الساكنون حول نهر « التايمز » وكان القليل الذى يعرفه من الانجليزية أحسن بكثير من الكثير الذى نعرفه نحن عنها !

سألته - بدون معاونة المترجم هذه المرة - كيف أصبح أستاذًا فى المدرسة العليا للحزب؟ إبتسم كعادته وقال فى كلمات خاطفة : « سأقول كل شىء خلال المحاضرات » !

وفعلاً.. عندما كان حديثه عن الحالة التى كان عليها الشعب الألمانى أيام الحرب وبسبب العدوانية الهتلرية وطابعها الإمبريالى، استفاض فى وصف مظاهر الفقر والجوع التى عايشها أهالى برلين، وكيف أن الكثير منهم كان لا يجد حتى كسرة من الخبز الجاف. ثم يقول الغواصة : «ومثلى مثل كثيرين تركت عملى فى المصنع، وتركت دراستى التى كنت منتظماً بها فى الوقت نفسه لأهاجر إلى الريف حتى استطيع أن أحصل على طعام لى ولأسرتى»!

وفى مرة أخرى كان يتحدث عن الاختلافات والتقارب بين طبقات المجتمع الاشتراكى الواحد رغم بذل كل الجهود لإزالة أى تناقض بينها، واندفع الغواصة من جديد ليقول : «ابنتى مثلا تعمل الآن «حلابة» لبن فى احدى التعاونيات الزراعية وهى انتهت من دراستها الثانوية، وعلى ذلك فإن وضعها الطبقى لا يمكن أن يصفها بغير انها «فلاحة»، لقد اختارت هذا العمل بمحض إرادتها وبدون تدخل منى.. وفى نفس الوقت أنا أعمل بالتدريس فأنا من «الانتلجنسيا» ورغم ذلك فنحن نعيش تحت سقف بيت واحد أنا وهى وابنى الذى يعمل فى إحدى ورش صناعة الآلات ويعد نفسه ليصبح بعد ذلك مهندساً»!

* * *

كنا صباح السبت، وكان التاريخ ٥ يونية، ورأينا الغواصة يدخل

قاعة المحاضرات - على غير عادته - متجهما، ألقى علينا تحية الصباح على عجل، ثم دخل فى الموضوع على الفور:

أربع سنوات على العدوان الامبريالى الاسرائيلى على البلدان العربية، ولذلك فأنا أطلب منكم جميعًا الوقوف دقيقة حدادًا على شهداء حرب يونية ١٩٦٧».

وقفنا صامتين والدموع تكاد تطفر من عيوننا. وبعد أن انتهت الدقيقة، استمر دكتور فريكا فى كلامه - وبالتهجم نفسه - «نحن نعلم علم اليقين أنه لكى نقضى على آثار ذلك العدوان فإننا نحتاج إلى عمل ونضال متواصلين» فى نهاية محاضرات كل يوم سبت تعودنا من الغواصة - أو من غيره من الأساتذة - أن يتمنى لنا عطلة نهاية أسبوع سعيدة، ولكن «فريكا» قال فى حزم: «أنا لا أتمنى لكم اليوم نهاية أسبوع سعيدة، فأنا أعرف أنه يوم حزين بالنسبة لكم»!

لم ينته الأمر عند هذا الحد.. فقد كان البرنامج المعد يتضمن عدة أفلام عن الثورة الاشتراكية فى روسيا، وأحداث سنة ١٩١٧ وكيف قاد «لينين» الشعب إلى النصر، وكنا قد رأينا أول هذه الأفلام «أكتوبر»، ولكن الغواصة أعلن أن الفيلم الذى سنراه لن يكون عن ثورة أكتوبر، ولكن عن صمود الشعب السوفيتى امام الغزو الإمبريالى الألمانى فى الحرب العالمية الثانية وعنوانه «التحرير» مشاركة وجدانية لا تقف عند حدود العواطف، فالغواصة يبدو دائما وكأنه أبعد الناس عن أن يكون عاطفيًا، فالجالسون أمامه لابد أن يكونوا

فى حالة انتباه مستمرة، لن يستطيع أن يخدعه أحدنا بأن يتظاهر والقلم فى يده بأنه يكتب ما يقوله، فإن الغواصة سيتظاهر فأنه يفكر فى النقطة التالية التى سيقولها، ثم يتسرب بخطواته ناحية هذا الذى سرح بفكره بعيدًا - وإن كان القلم فى يده - ويقف إلى جواره ليقول له دون أن يقول حقيقة «أنا هنا».

ومرة أخرى فرغ الحبر من قلم الزميل الذى يجلس إلى جوارى، فوضع القلم أمامه وتوقف عن الكتابة معتقدًا أن الأمر سينتهى عند هذا الحد، ولكنه فور أن وضع القلم رأى «الغواصة» إلى جواره ويده ممدودة بقلمه الخاص، واليد الأخرى تشير له أن يستمر فى الكتابة!

تعودنا بعد ذلك والغواصة يغوص وراء كل المواضيع وكأنه موسوعة تضم كل المعارف، ويحتفظ دون ما حاجة إلى مراجع بكل الأرقام والتواريخ، تعودنا أن نغوص معه دون أن ندرك أحيانا أنه يتسلل من قضية إلى قضية أخرى مختلفة تمامًا، وعندما يحدث ذلك، فإنه على الفور يقول بصوته الهادئ:

«قد تعتقدون أن الرفيق فريكا قد «سرح» بكم فى سرحة من سرحاته، ولكنى فى الحقيقة أعطيكم الخلفية وراء هذه القضية.. كان ذلك اليوم يتحدث عن معدل الإنتاج الزراعى فى الاتحاد السوفيتى، وكيف أن ذلك المعدل انخفض بصورة مزعجة - وخاصة فى القمح - فى الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ ثم قال بصورة خاطفة - وعلى غير عادته - إن هذا الانخفاض يرتبط طبعًا بالنقائص

التى تسبب فيها « خروشوف » وأراد أحدنا أن يأخذ فكرة عن هذه النقائص، ولكن دكتور فريكا قال على الفور : إن الغواصة لن يتوقف هنا كثيرًا، هذه النقائص فى نقط سريعة هى تحويل التعاونيات الزراعية إلى مزارع حكومية، وهى الإرشاد غير العلمى فى الزراعة، وهى أيضًا عدم الاستقرار على الفنيين الذين يشرفون على الزراعة وتبديلهم باستمرار.. مرة يمين.. ومرة شمال » !

* * *

فى المطعم.. هناك مكان مخصص للطلبة، ومكان آخر مخصص للأساتذة فى مدرسة الحرب العليا، ولكن « الغواصة » جاء ظهر ذلك اليوم الى المكان المخصص للطلبة، وقف وسطنا فى الطابور، وعندما جاء دوره رفضت الطاهية أن تقدم له أى طعام، هكذا النظام وهكذا الأوامر، تكلم معها بالألمانية ولم نفهم ماذا يقولان، ولكنه فى النهاية انسحب من الطابور ثم قال لنا بالانجليزية :

لقد حاولت إقناعها بأنى اليوم أدرس موضوعًا جديدًا وعليه فأنا طالب.. ولكنها ردت فى حزم قائلة : « اذهب لتناول غدائك فى المكان المخصص لك » !

باخ.. على قيد الحياة!

فى «ايزناخ» القريبة جدًا من «فايمار» قصدنا بيت «باخ» - معذرة فالسجع غير مقصود ولكنها اللغة الألمانية - وفى ذلك البيت رأيت ما لم اره فى حياتى من الآلات الموسيقية.. مجموعة هائلة تضم كل ما حاول الانسان أن يصدر به صوتًا موسيقيًا منذ بداية تواجده على الأرض وحتى مات ذلك الموسيقى الألمانى العظيم.

أحجام متفاوتة من «الكمنجات» تبدأ من حجم عقلة الأصبع وتنتهى إلى حجم دولاب الملابس، والشيء نفسه بالنسبة «للبيانو» ولآلات النفخ بل وحتى لما نسميه نحن هنا «بالناى» أشكال متعددة، طويلة وقصيرة، بعضها أتى به باخ من أقصى الشرق، والبعض الآخر من أقصى الجنوب. زحام شديد من الآلات الموسيقية وكأنك فى

متحف كبير. . ولكن حدث ما جعلنى أستمر وسط ذلك المتحف. .

فقد رأيت رجلاً شد كل الانتباه عن معظم ما يحيط به من عجائب. ولم يكن المثير فيه أيضًا إن اسمه «دوهن». . ولكن المثير فيه أنه يجيد العزف على كل قطعة فى ذلك الزحام الهائل. . لا يترك قطعة دون أن يعزف عليها إما بيده. . أو بفمه. . أو برجله. . بل أننى فى لحظة من اللحظات ظننت أنه نظر لواحدة من تلك القطع الكثيرة بمجرد نظرة بعينيه. . فإنها على الفور ستطيعه وتصدر صوتًا موسيقيًا!

همس احد الأصدقاء الألمان فى أذنى بأن الرجل يتقمص شخصية «باخ» إلى حد كبير، وذلك ناتج من أنه يعمل مشرفًا على هذا البيت منذ سنوات طويلة ولذلك فإنه يعامل كل ما يحيط به معاملة خاصة تصل إلى حد العبادة.

تلك الحلقات الزجاجية - وهو يسميها هارمونكا الزجاج - كنت أعتقد انها لن تصدر فى النهاية إلا صوتًا يشابه ما كنا نفعله ونحن صغار عندما كنا «ننقر» بأصبعنا على الأكواب أو على زجاج النافذة ولكن ذلك الرجل «دوهن» يجلس أمام تلك الحلقات الزجاجية وكأنه يجلس أمام بيانو من آخر طراز، ثم مرر قطرات ماء على أصابعه. وبعدها. . إنطلقت فى الأرجاء أنغام موسيقية كأنها تهبط من السماء. . ولقد حاولت أن أنتهى من العزف، أن أفعل مثله، فصرخ فى وجهى

صرخة موسيقية تقول : إنه أولا ممنوع اللمس.. وإنه ثانيا - وهذا هو الأهم - فإنى سأتسبب فى جرح أصابعى جرحًا عميقًا يمر بها الواحد بعد الآخر!

مدينة للعباقرة فقط!

فى قصر «جيته»، وبالذات فى ذلك المكان القريب من الحديقة الكبيرة والمفضى إلى الشارع.. أحسست وكأن «فاوست» يتجسد أمامى مرة واحدة، كأنه أمامى مثل تلك العربة السوداء - التى كانت فاخرة - والتى تتمدد ذراعاها فوق الأرض وكأنما تستجديان جثة حصان مدفون تحت الأرض.

ولكم كانت قضيته فريدة..

هل من حقه - وهو الإنسان - أن يترك نفسه تمامًا للشيطان، فلا تعرف روحه إلا الشر وحده؟.. وإذا فعل.. فهل ينجو من الخالق؟.. بل هل ينجو من الشيطان نفسه؟

أسئلة ثارت فى ذهنى مرة واحدة وأنا أطأ بأقدامى الأرض نفسها

التى كان يسير عليها العبقرى «جيته»، وعيناى تريان ما كان يـراه- وإن تأخر الزمن بعد ميلاده ٢٢٢ سنة، وبعد موته ١٤٩ سنة.

غير أن «جيته» ليس العبقرى الوحيد الذى أنجبته هـذه المدينة «فايمار» التى تقع جنوب غرب المانيا الـديمقراطية.. فهنـاك غـيره كثيرون، لكن أكثرهم معرفة لنـا الموسيقار «فـرانزليست» والشـاعر الكبير «شيللر».. بل إنه على بعد أميال قليلـة جـدًّا تـوجد مـدينة صغيرة أخرى «إيزناخ» التى عرفت بداية قصة «مـارتن لـوثر» والـتى كانت موطنًا للموسيقار العظيم «باخ»!

قبل أن ندرك المبنى أو القصر الذى كان يعيش فيه «جيته» كان علينا أن نترك السيارة لنسير على الأقدام، وقد أدركت على الفـور أن «فايمار» وخاصة ذلك الميدان العتيـد الـذى كان أول مـا يـطالعه «جيته» صباح كل يوم له طابع خاص غريب وكأنه يـكرر مسرحيـة، وحتى تستطيع ان تتخيل معى المنـظر لابـد أن أقـدم لك مفـردات لأشياء قد لا يضمها الديكور ولكنها تستكمل ابعاده وصـورته.. عـربة سوداء فاخرة يجرها زوجان من الخيل، رصـيف ضـيق جـدًّا ويعلـو حوالى نصف متر عن أرضية الشارع المغطاة بمربعات من الجـرانيت - موجود مثلها فى شوارع الاسكندرية القديمة! - حديقة صغيرة تتـوسط الميدان ومحاطة بسور حديدى فى منتصـفها تمثـال ونـافورة للميـاه فى الوقت نفسه.. فإذا تركت الميدان فإن الشوارع الضـيقة الـتى تقـودك بعد ذلك ليست كلها على مستوى واحـد مـن الارتفـاع، فبعضـها

ينحدر بك وكأنك تنزل درجات بيت ثم يتلقفك شارع آخر ليعلو بك ثانية وكأنك تصعد درجات البيت نفسه، وأنت تستطيع أن تفهم من ذلك - كما فهمت أنا دون أن أسأل - أن المدينة جبلية او مقامة فوق جبل، ولكنه مثل باقى جبال المانيا مزدهر بالخضرة، وقد قلت لنفسى على الفور إن هذه الخضرة، وهذا الهدوء الذى لا يعكر صفوه أى شىء إلا أصوات الطيور هما سر انجاب هذه المدينة لأكثر من عبقرى، وإن كان من الغريب ان يظهروا جميعًا فى عصر واحد، بل فى سنوات متقاربة وفى وقت ازدهرت فيه الرومانسية كما لم تزدهر من قبل او من بعد!

وكان من الغريب بالنسبة لى أيضًا أننى زرت بيت «جيته» وبيت «شيللر» فى يوم واحد. والمسافة المكانية بينهما ليست بعيدة.. ولكن المسافة بين مظهر ما تركه كل منهما تختلف كل الاختلاف!

فبينما الفخامة والعظمة تستقبلك مع كل خطوة تخطوها داخل المبنى أو القصر الذى كان يعيش فيه «جيته» تجد البساطة المتناهية، بل بعض مظاهر الفقر فى بيت «شيللر»، فى البيت الأول كل سمات حياة الوزير الذى كان من ألمع الشخصيات فى بلاط «فايمار»، وفى البيت الثانى كل سمات الرجل الذى شغل نفسه بقضايا بلده الاجتماعية واختار أن يكون استاذًا للفلسفة، ورغم ذلك فإن المكتبة التى تضم الكتب التى كان يقرؤها كل منهما تقلب الميزان لصالح «جيته» وكأن المسألة - كما هى فى كل عصر - هى مسألة إمكانات

مادية قبل أن تكون قضية شغف وحرص على الاطلاع!

هذا كان انطباعى وأنا أزور بيت «شيللر» بعد بيت «جيته» ولكنى عندما قرأت الخطابات التى كان كل منهما يرسلها إلى الآخر ظهر لى على الفور أن العلاقة بينهما كانت تتخطى ما رأيته اختلافا بينهما إلى مرحلة الزمالة الشعرية أو إلى ما يمكن أن نسميه «الانجذاب العبقرى».. وفى أحد خطاباته قال شيللر:

«من المثير للدهشة تلك الحقيقة التى تؤكد أن معرفتى بشاعر كبير مثل «جيته» هى فى الواقع التى أثرت حياتى الفكرية، بل ساعدتنى فى أن أتطور شيئًا فشيئًا!

وقال له «جيته» فى خطاب له:

«الحقيقة يا عزيزى شيللر» أنك أعدت إلى ثانية الإحساس بشبابى، بل جعلتنى أتوق لأن أتدفق بالشعر من جديد وهذا كل ما أتمناه فى حياتى كلها»!

. ورأينا مخططا لمسرحيته «اللصوص» - ظهرت أول طبعة لها فى فرانكفورت وليبزج عام ١٧٨١ - ولقد تولى الشاعر الكبير طبعها على نفقته الخاصة لأن أغلب دور النشر رفضت بالطبع تقديم مثل هذه المسرحية الجريئة.. والشىء نفسه حدث عند تقديم المسرحية على خشبة المسرح عام ١٧٨٢ فقد عمد المخرج «والبرج» ورغم احتجاج «شيللر» إلى الإيهام بأن أحداثها جرت فى زمن بعيد من تاريخ ألمانيا - عصر الأمبراطور ماكسميليان فى بداية القرن السادس عشر - وحتى

رغم ذلك الإبهام فإن الأوراق تثبت ما حدث بين صفوف المتفرجين فى ليلة العرض الأولى.. لقد كتب شاهد عيان يقول:

«لقد تحولت دار العرض إلى ما يشبه جمعًا للمجانين أو الذين أصابتهم ملامح الهياج فبرقت عيونهم، وراحت أقدامهم تدق على الأرض، بعنف فهؤلاء الذين يرونهم على خشبة المسرح أمراء والسلام.. لصوص والسلام.. ولا يهم إذا كانوا من القرن السادس عشر.. لأنهم مازالوا يسرقون».

* * *

فى اللحظات الأخيرة لنا فى «فايمار» كان يحدث دائمًا عند الرحيل، ابتسامات وتحيات وداع، ثم سمعت كلمات جاءت ببساطة متناهية وكأنها غير مقصودة ولكنها تجاوبت فى جنبات رأسى بعنف:

«والآن تتركون هذه المدينة الصغيرة فى ريف ألمانيا لتعودوا إلى العاصمة الكبيرة برلين».

«فايمار» مدينة صغيرة؟

هل هكذا تتواضع أكبر المدن؟

من يطيع الإسكافى ؟ !

بخطوات مترنحة، وبعيون زائغة، وبجوف عامر بالبيرة، صعد الرجل إلى الدور الأول من المبنى الحكومى القديم الذى تهدم نصفه وبقى النصف الثانى خاليًا. . ثم اختار حجرة تطل على الميدان الرئيسى فى المدينة الصغيرة، وبدون مقدمات ارتفع صوته يخطب فى الناس.

فى أول الأمر ضحك رجل وهو يقول :

« إنه هاينز الإسكافى ولابد أنه مخمور كعادته » !

ورد عليه رجل آخر :

« ولكنه أعلن نفسه حاكمًا للمدينة. . فلنتوقف لنستمع إلى ما سيقوله ».

وتوقف الرجلان، وأمام كلمات هاينز المدوية التى تعد الجميع

بتحقيق كل ما فى الدنيا من أحلام جميلة، تزايد الزحام أمام النافذة التى يطل منها. كان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد.

فالإسكافى لابد سيفيق فى الصباح، وكل أهالى المدينة الصغيرة «كيوبنيك» يعرفون ذلك. ولكنهم عندما انصرفوا جميعًا كانوا قد اتفقوا على شىء بدأ بسؤال :

«لماذا لا نحقق أمل هاينز»؟.. وكان الاتفاق الذى لم يعترض عليه أحد.

لا يهم أنه كان مخمورا، ولا يهم أنه فرض نفسه بدون مناسبة!

* * *

نكتة كان يرويها رجل جاء لزيارة مريض فى «كرانكن هاوس كيوبنيك» - أى مستشفى كيوبنيك وبعد أن انتهى من روايتها انصرف ليترك قريبة المريض الذى كانت أوامر الأطباء له ألا يتحرك من فراشه أربعة أيام كاملة - الأمر نفسه كان لزميل لنا مريض بالمستشفى نفسه - والذى حدث أن زميلنا المصرى مثل كل شىء إلا البقاء فى فراشه، غادر الحجرة.. وصار فى الممرات، ونزل إلى الحديقة ولكنه كان كلما يعود إلى الحجرة يجد ذلك المريض الألمانى ملازمًا لفراشه، لا يغادره حتى لقضاء حاجة، فما دامت أوامر الأطباء تقضى بالبقاء فى الفراش ولمدة أربعة أيام كاملة.. فسيبقى فى الفراش حتى يجىء اليوم الخامس!

سمة مميزة للشعب الألمانى يتميز بها عن بقية شعوب العالم!

هذه السمة لا يمكن أن نحددها بأنها الطاعة العمياء، أو أنها احترام ما يجمع عليه الناس. أو الصرامة فى تنفيذ كل ما تقوله القوانين. فربما تكون خليطًا من هذا كله.

فمادامت القوانين مثلاً تمنع تمامًا التدخين فى جميع وسائل المواصلات العامة. فلا يمكن أن يشذ مواطن ألمانى واحد عن ذلك.. والإعلانات الوحيدة الموجودة فى أغلب المواصلات فوق الأرض وتحت الأرض هى ممنوع التدخين، وأحيانا تتغير الصيغة لتصبح وفى تحذير صارم «لا تدخن»، وبالطبع فإن مخالفة هذه الإعلانات - ولا أقول الأوامر - تأتى دائمًا من الوافدين على ألمانيا الديمقراطية، وقد حدث أن نسى احدنا نفسه وهو فى عربة القطاع وأشعل سيجارة، وعلى الفور تعلقت به عيون كل الجالسين فى العربة. وعندما لم يفهم معنى هذه النظرات النارية، اقترب منه رجل ليقول له بالإنجليزية:

«إذا كنت لا تفهم الألمانية فأمامك مكتوب لا تدخن».

واطفأ السيجارة وهرب فى أول محطة!

* * *

بعد الشهر الأول فى ألمانيا كنا قد تشربنا الكثير، وفى يوم عائدًا من السوق محملا بلفائف كثيرة تذكرت أن معى خطابًا أود إرساله

إلى القاهرة، وفور دخولى مكتب البريد هالنى الطابور الطويل الـواقف أمام الموظفة.. وبدون تفكير وضعت كل ما أحملـه مـن لفـائف على المنضدة المواجهة للباب وانصرفت لأعود بعد فترة من الوقت.. كنـت مطمئنًا تمامًا أن أحدًا لن يمس هذه اللفائف حتى ولو تركتها وعـدت لأخذها فى اليوم التالى.. وفعلاً تركت مكتب البريد ورحت أتجول فى المنطقة المحيطة به.. وبعد ساعة كاملـة عـدت إلى المكتـب ولـكنى صلمت فور دخولى بعدم وجود كل اللفائف التى تركتها هنـاك، هـل حدث المستحيل؟. هل امتدت يـد شـخص مجهـول وأخـذت اللفائف؟.. غير معقـول!، ووقفـت كالمذهـول لا أعـرف كيف أتصرف، أسرعت ناحية الموظفة لأقول لها بـالإشارة وبـكل اللغـات: إننى كنت أترك أشياء تخصنى فوق المنضـدة وأنهـا اختفـت جميعـا.. ولكنها لم ترد على إشارتى حتى ولـو بـكلمة واحـدة.. وتـذكرت على الفور أننى قد تخطيت دورى فى الطابور. فعـدت على مضض لأنتـظر دورى ونظراتى زائغة فى كل اتجاه تبحث عن اللفائف، وأخيرًا جـاء دورى فعدت سريعًا إلى الاشارات ولكنها قالت فى صرامة ورقة:

«أين الخطاب الذى تريد إرساله؟»

علت وجهى كل ملامح التساؤل وأنا أريد القـول بـإن الخـطاب ليس مشكلتى الآن، ولكنها أعادت ما قالته بالصرامة نفسـها وبـالرقة نفسـها، فأعطيتها الخطاب، ثم أعطيتها ما طلبته من نقـود، وقبـل أن أستدير وقد غلبنى اليأس سمعتها تقول وبانجليزية واضحة:

« هل هذه اللفائف تخصك ؟ »

ووضعت أمامى اللفائف الواحدة بعد الأخرى وأنا لا أكاد اصدق، وبالطبع تهللت أساريرى بفرح غامر. ولكنها قالت فى جدية خالصة :

« هذه اللفائف كانت تشغل المكان الذى يكتب عليه الناس خطاباتهم.. لا تفعل ذلك ثانيًا » !

* * *

على مدى أسابيع طويلة كنت أتساءل : هل يمكن أن يعيش الناس بكل هذه الجدية. وبكل هذه الصرامة ؟

كنت أعرف - بعيدًا عن المصطلحات السياسية - أن الشعب الألمانى رغم كل خصائصه المتأصلة فيه، يحاول مع بنيان بلاده من جديد بعد الحرب العالمية الثانية أن يكتسب سمات أخرى جديدة تضاف إلى تقديسه للنظام والعمل، سمات تلغى سمة قديمة فى أذهان العالم تصور شموخه وتقاليده وأحيانًا.. عدوانيته !

ولذلك فإن الجميع يحرصون على تربية الأجيال الجديدة على التفتح الكامل على كل غريب، وحب كل أبناء شعوب الأرض، وأنت قد تجد صعوبة فى كسب صداقة الرجل الألمانى، ولكنك لن تجد أى صعوبة فى كسب صداقة طفل أو شاب فى مقتبل العمر، فهذا الطفل أو ذلك الشاب سيبادر إلى التعرف بك، وسيحرص على

أن يتجاذب معك أطراف الحديث وهذا ليس معناه أن الكبار لا يودون كسب صداقة أحد، فى الحقيقة أنهم طوال أيام العمل فى الأسبوع ينصرفون بكل طاقاتهم للعمل وحده يستيقظون من أجله من الصباح الباكر ويعودون آخر النهار وقد هدّهم التعب.. ولكن.. عندما تجىء عطلة نهاية الأسبوع وهى يومان، السبت والأحد، يتحول كل الكبار إلى طبيعة أخرى تماثل طبيعة الأجيال الجديدة!

الحكاية - أو النكتة - تقول على لسان الناس.. لماذا لا نحقق أمل هاينز؟!

وقد حققوا أمله بالفعل.. قالوا مادامت هذه هى رغبته، وهذه هى رغبتنا أيضًا.. فلابد علينا أن نطيعه.

وبقية الحكاية أن «هاينز» عندما أفاق فى الصباح، عاد ليصبح إسكافيًا من جديد!

فهرس

صفحة

صفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٢٨٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢١٤٢-٢	ISBN

١ / ٨٧ / ٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٨١٨/٠١

ص
٨٠